



قصة الضمير المصري الحديث

كتاب الإذاعة والتليفزيون

سلسلة كتب شهرية تصدر عن مجلة

الإذاعة والتليفزيون

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

سعيد عثمان

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية



صلاح
عبد الصبور

قصة الضمير المصري الحديث



مقدمة بقلم ، صلاح عبد الصبور

هذه سياحة في وجدان مصر في القرن التاسع عشر ، وبعض
مآسناه من القرن العشرين .

وهى سياحة لاتتخذ من أحداث التاريخ الا معالم لتحديد
التاريخ وتلمس الخطى . فالأحداث هى حركة الواقع التى
تستجيب لها حركة الفكر ، بل هى الأرض التى ينبت فيها الفكر ،
وتزدهر أصوله وفروعه ، وتتضح انبثاقاته وتجلياته ، وينالق
رجاله فى حياتهم العقلية والذوقية والوجدانية .

ولاشك أن تاريخ مصر فى هذه الفترة تاريخ حافل ، متوالى
الفصول ، منها الضاحك والبائى ، والمنتصر والمنكسر ، والمنطق
والمتروك والمراجع ، فحركة التاريخ ليست واحدة الاتجاه الا فى
محصولاتها النهائية ، حين ننظر اليها من بعد ، أما حين نمأيشها عن
قرب ، فاننا كمن يشهد تلا من الأرض صاعدا الى الغلاء ، ولكن
فى هذا التل كثير من الفجوات والوهاد . والذين يرون التاريخ

تطورا منفصلا قد يفزعون كثيرا حين يرون بعض جوانب الصورة الداكنة ، وقد يفوتهم ان تطور التاريخ ليس حتميا كتطور الكائنات الحية كما ترسمه قوانين البيولوجيا ، بل ان وراءه الانسان صانع التاريخ ، الذى يستطيع ان يستعجل خطى هذا التطور ، أو يبطئ بها ، أو يعرقلها ويحرفها عن غاياتها فى بعض الأحيان .

وصناعة التطور هى أشق الصناعات ، وهى لاتتم قط فى غيبة عن الانسان ، الانسان كمجموع حين تتحرك نواذعه ورغباته نحو امتلاك أكثر للحياة ، واستحواذ أشمل على معطياتها ، فيحاول جهده بالتجربة والتنظيم ان يحسن من آلاته ويطورها ، وأن يزيد من ثروته وينميها ، وأن يجعل الأرض بما عليها وتحتها تستجيب لقدراته ، فكانه يجرى حوارا منفصلا مع الطبيعة ، لفته فيه هى العقل النفعى ، والتجربة المفضلة ، والآلة المنتجة التى هى ثالثة ذراعى الانسان الحديث .

وثمة حوار آخر يجريه الانسان كفرد - لا كمجموع - مع الحياة بقية المساهمة فى صناعة التطور ، ذلك هو حوار المفكرين وأرباب التأمل ، وكما عاشت مصر أياما تاريخية حافلة فى هذه الحقبة من الزمان ، وكما تغيرت وسائل حوار الانسان مع الطبيعة فيها ، فجدت ألوان جديدة من الملكية الزراعية ، وعرفت الصناعة الى حد ما ، وقامت الطبقة الوسطى من الممتلكين الزراعيين والرأسماليين الصغار وموظفى الدواوين ، كذلك جرى حوار عظيم متمتع بالحلقات بين الانسان - كفرد متأمل ، وبين الواقع ، كان أبطاله هؤلاء الرجال العظماء الذين حفل بهم تاريخها الحديث ، والذين أحكى بعض مواقفهم ، لا سيرتهم - فى هذه الفصول .

وقد يحلو لى هنا أن أستجيب لتسميتى لهؤلاء الرجال بالأبطال ، وانتقل خطوة مع المصطلح الفنى ، لكى أقول ان هؤلاء

الرجال لم يكونوا أبطالا فحسب ، بل كانوا أبطالا تراجيديين أيضا ، فقد نما معظمهم كما ينمو البطل التراجيدى فى ظل مقاومة كانها القدر المعاند ، دخلوا المدارس بطريق الصدفة التى تشبه الخطأ وحلوا طلاس الحروف باجتهاد عظيم ، وتأملوا فى شأن الحياة فى بيئة عقلية لاتعرف الا التأمل فى شأن الموت ، ونحن قد لاندھش الآن اذا رأينا أحد أبناء جيلنا وهو يعانى الافكار المقلقة المتفجرة بالحياة ، أو يحلق فى آفاق التأمل المشوق الى تحريك الواقع ، فقد صارت مصر - بدرجات متفاوتة بين حين وآخر - جزءا من الواقع العالمى المتفجر بالقلق الخصب الطامح الى احتمالات المستقبل وقد نشأت فى مصر مدارس من الفكر هى احياء لتراث أصمىل أو استنبات لمدارس فكرية عالية معاصرة ، وقد نشأت فيها أيضا فنون من الأدب هى أيضا امتداد لفنونها المتوارثة أو تطعيم للشجرة المحلية بهذا النسخ الأوروىي الخلاق . أما هؤلاء الآباء والأجداد فقد نشأوا فى بيئة ساكنة فاترة ، وفى ظل تقاليد خمسة قرون طوال من الجمود العثمانى والمملوكى ، وفى غيبة التقاليد الفكرية الداعية الى التأمل ، والتى تربط بين الفكر والواقع .

ولاشك أن معظم هؤلاء الرجال كانوا يتمتعون بما نسميه «النزاهة الفكرية» ، وهى القدرة على تخلص النفس من تحيزاتھا وأهوائھا ، ومحاولة النظر الى الحقيقة فى قلبھا وصميمھا . فالحقيقة عندئذ هى هدف يقصد لذاته ، بغض النظر عن انتماءاتنا وميولنا . والحقيقة جوهر مضمئ لاتنشفل العين عنه بالنظر الى حواشيه وهوامشه وانعكاساته . وهذه النزاهة الفكرية هى القيمة الخلقية الأولى التى يجب أن يتحلى بها أهل الفكر والتأمل . وهى التى تبرر وجودهم فى المجتمع ، وشرعيتهم فيه كنخبة يحق لها القيادة والتوجيه .

وقد تميل كثير من اللفسفات المعاصرة الى التقليل من شأن

«النخبة» أو «الصفوة» والتهوين من دورها في المجتمعات الحديثة، بل في كل المجتمعات على السواء ، وهي تظلم كلمة «النخبة» حين تلحق بها أهل الثراء أو أهل السلطة . فالنخبة الحققة في كل مجتمع هي نخبة الفكر ، وهي وحدها التي تستحق تسميتها بهذا الاسم . اذ أن الانتماء الى النخبة أو الصفوة ليس ميراثا أو تسليطا ، ولكنه اكتساب . ولا يبرر قيام النخبة الا تحليها بفضائل تفتقر اليها مجتمعاتها ، ولانعى بالفضائل هنا الفضائل التقليدية كالصدق والكرم وغيرهما ، بل نعى الفضائل التي تنسب الى عالم القيم أكثر من انتسابها الى عالم الأخلاق ، مثل القدرة على التفكير ، والقدرة على الحسم واتخاذ المواقف ، وتنمية الاحساس بمعنى الولاء للوطن والتاريخ ، والجسارة على اكتشاف حلول جديدة للمشكلات والمعضلات .

وهناك ثلاث مراحل في حياة النخبة ، أولاها النظر في الواقع الذى نشأت فيه ، واستبانة عيوبه ونواقصه ، وثانيها الاعتزال للتأمل في هذه العيوب والنواقص ، واكتشاف سبل تجاوزها ، وثالثها العودة الى المجتمع بهذا الاحساس الثقيل السعيد بالحمل الملقى على عواتقهم ، اذ يطمحون الى تغيير المجتمع باستعمال العقل والحوار حينما كما يفعل الفلاسفة والانبياء ، أو باستعمال القوة وتجميع خيوط السلطان حينما كما يفعل الثوار والمشرعون .

وقد كان هؤلاء الرجال الذين نبسط بعض مواقفهم هم «النخبة» أو «الصفوة» في المجتمع المصرى خلال حوالى قرن ونصف من الزمان . وكان لكل منهم عالمه ، عالم حياته العادية التى نشأ فيها طفلا ريفيا مصرية فقيرا ، ثم سفرته أو رحلته بعد ذلك الى القاهرة أو الى أوروبا أو الى داخل نفسه أحيانا ، لكى يخرج بعد ذلك الى عالمه الجديد ، عالم استشراف المستقبل .

وكان لكل منهم أيضا عشرته ، العشيرة الأولى هي أهله وأبناءؤه ، والعشيرة الثانية هي تلاميذه وأتباعه . . كذلك عاش رفاعة الطهطاوى وعبد الله النسيدي ومحمد عبده ولطفى السيد وقاسم أمين والعقاد وطه حسين وغيرهم .

وثمة معنى آخر يتجلى في معظم هؤلاء الأبطال . وهو أنهم لم يقفوا في الفراغ الكائن بين عالم الفكر وعالم العمل ، فهم متفلسفون أحيانا ، ولكنهم عاملون دائما ، ولقد شاركوا في الحياة العامة بكل حيلتهم وحولهم . بل لقد قدم بعض هؤلاء الأبطال - بسيرة حياتهم - حلا موفقا لهذا السؤال المعضل الذى يطرحه الآن بعض المفكرين الاوروبيين ، وهو امكانية التوفيق بين الثقافتين .

ان في العالم المعاصر الآن نوعين من الثقافة ، أولهما ثقافة تكتيكية علمية ، تستمد بناءها من معطيات التجربة المباشرة ، وتلجأ في ترتيب معلوماتها الى أسلوب الاحصاء والاستقراء واستخراج القوانين . وهى تنتظر شئنا الى ضرب آخر من الثقافة وهو الثقافة الادبية التى تستمد بناءها من معطيات الحدس الملهم ، وتلجأ في ترتيب معطياتها الى أسلوب المقارنة والاستنباط واستخراج الاشرافات ، ويجلو لها بعد ذلك ان تطلق على نفسها اسم « الثقافة الانسانية » وكأنها تدافع عن عدم تجردها وتحكم الانسان بميوله وأهوائه في معطياتها .

ومجال الثقافة العلمية معروف، وهى قد ازدادت انحاء باللائمة على الثقافة الانسانية ، بل لقد أوشكت على احتلالها منذ ان اهتمت الى كثير من الكشوف والاختراعات العلمية المثيرة ، بل لقد أصبح أهل الثقافة العلمية يفخرون ببعدهم عن هذا المجال المضلل الذى تحلق فيه الثقافة الانسانية .

أما مجال الثقافة الإنسانية ، فهي هذه الخبرات والعلوم التي يتدخل فيها الذوق الإنساني كالفن بأنواعه من أدب ونحت وعمارة وموسيقى وتصوير ، وهي هذه العلوم الإنسانية كالتاريخ والدين والفلسفة والتذوق الأدبي وغيرها .

هذا الصراع بين الثقافتين موضوع معاصر أثاره الأول مرة الكاتب العالم الروائي الانجليزي ((ه.ن. سنو)) في كتاب له عنوانه ((بين ثقافتين)) مشيرا الى أن خلاص العالم لن يهل عصره الا بامتزاج الثقافتين والتوفيق بينهما ، وقد أثار الكتاب حين صدوره كثيرا من الأصدقاء ، وتصدى لثقده وتقييمه في جملة ومحتوياته كثير من الكتاب .

ولعل تاريخنا يقدم اجابة رائعة عن هذا السؤال حين يقدم سيرة رفاعة الطهطاوي الذي درس الهندسة والقانون والأدب بالحماسة نفسها ، وحين يقدم سيرة علي مبارك الأديب صاحب الرسائل والمؤرخ صاحب ((الخطط التوفيقية)) والمهندس الأول للقناطر الخيرية .

أترانا نستطيع أن نقول ان هذه الفترة من حياتنا كانت ميلادنا الجديد ، أو «الرينيسانس» الذي عرفته أوروبا في قرونها الثلاثة ، منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر ، وهو الميلاد الذي أفسح المجال لعصر العقل والعلم لتتأمل في واقع الصورة في أواخر القرن الثامن عشر بمصر وفي واقعها الآن ، لنذكر مكانة هذا العصر من تاريخنا .

وبعد ...

فليس هذا الكتاب دراسة أكاديمية ، وما أردت أن يكون ، ولو أردت ما استطعت ، فلن يستطيع العاشق أن يسبر روح

حبيبته بالمسبار أو يزنها بالميزان وما مصر الا معشوقتنا الاولى ،
وما نحن جميعا الا عشاقها وخدامها الصغار الذين نطمح الى أن
نقوم بشرف العشق وفرض المحبة .

ونحن الآن نحس جميعا بالتسوق العظيم الى الحديث عن
مصر ، والسياحة في أيامها الحافلة ، ولعلى أذكر الآن زيارتى
لأحد بلدان أوروبا بعد النكسة بشهور ، وهذا الشاعر الذى
التقيت به في أحد المؤتمرات هناك ، حين بادرنى بالسؤال :

— اذن أنت مصرى .. كيف حال مصر ؟

واجبته :

— حالها متى يا سيدي ؟ حالها الآن أم منذ سبعة آلاف
سنة .. ان هذه اللحظة المريبة هى مجرد دقيقة من أيام تاريخها
الأزلى .. دقيقة من الألم العميق ، تستأنف بعدها ابتسامتها
الخالدة ..

— نعم .. لا شك أنكم قد تغلبتم على كثير من الصعوبات ،
ولكن ماذا ستفعلون الآن ؟

— أعترف قصة العناء .. هذا الطائر الخرافى الذى يحترق
في النار كل حقبة من الزمان ، ثم لا يلبث أن يعود من جديد بريشه
الزاهى وعنقه الاصيد المائل .

— ما أشد تفاؤلکم ؟

— لأننا رأينا كثيرا ، وعرفنا كثيرا ، حين تموت وتحيى مئة
مرة في التاريخ ، تعرف أن الموت عارض وأن الحياة هى الحق .
أنت لا تدرك هذا لأنك لا تستطيع أن تنظر في تاريخ بلادك الى أعماق
من مائتى سنة ، وبعدها قد ترى القراصنة العراة . أما أنا ، فلى

فرصة باهرة ، اننى اسنطيع ان اتجول فى تاريخى الى عشرين
الفا من جنودى ، فأجد أحدهم يهندس الهرم الأكبر ، وأحدهم
يفتح الجمجمة فيداعب جراحها بأصابعه الحساسة ، ثم يعيد
تسوية الشعر فى تواضع حبيب ، وثالثهم ينشد أغانيه الرقيقة
وتأملاته العذبة ...

والآن ،

يا مصر العظيمة

تحية لسرك المتجدد العظيم

تحية لرجالك العظماء

تحية لمستقبلك البازغ رغم الغياهب ، والذي أحاول فى هذا
الكتاب أن أستثيره واستعجل اشراقته ، بأن أعرض صورة من
ماضيك الحافل .

(صلاح عبد الصبور)

اليقظ



- اللقاء المؤلم بين الفرسان والمدفعية
- الكلاب تتركب الخيول ووراءها الخدم
- حسين شلبي عجوه • أول مخترع مصري

وكما يحدث فى الحوادث ، أراد علماء أوروبا ان يكشفوا لعلماء مصر عن تقدمهم وذكائهم . . فدعوههم الى زيارة الجمع العلمى ، ثم أخذوا يعرضون عليهم فنونا من ابداعهم . . صب أحدهم سائلا أبيض ، ثملقى فيه ببعض السائل الأخضر . فصار - وبالعجب - أحمر ، ثم أخذ هذا السائل فوضعه على النار فصار حجرا ، ودق هذا الحجر بمطرقة فى يده ، فسمعت له طرقة هائلة ودوى عظيم ، وارتجف علماء مصر ، فلما استردوا وعيهم لم يملكو الا أن يهرشوا ذقونهم ، ويستعينوا بالله من شر السحر والسحرة .

كان مكان هذه الحكاية ، حى السيدة زينب ، فى عام ١٩٠٠ من الميلاد ، فى قصر يقوم الآن بحارة تدعى حارة «مونج» تيمنا باسم رئيس أحد الفريقين المتنافسين ، أما الفريقان فقد كان أولهما . . . الفريق صاحب البدائع والحيل ، هو فريق علماء الحملة الفرنسية الذى اصطحبهم نابليون بونابرت معه الى مصر ، اما الفريق الثانى فقد كان فريق «علماء» مصر وأهل الراى فيها .

أما الذى حكى لنا الحكاية ، فهو مؤرخ مصر فى ذلك الاوان . الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبوتى ، أول السلسلة العظيمة من اذكىام المصريين فى عصرنا الحديث .

وقد نقرأ الآن هذه الحكاية ونبتسم ، عارفين أن الخدعة كانت صغيرة وصبيانىة ، وأنها لا تزيد عن استغلال بعض بديهيات الكيمياء ، وقد نفكر قليلا فى الماضى ونأمله ، فنذكر أن كيميائى الغرب منذ ألف سنة كانوا يعرفون أضغاف هذه الحيل ، وان جابر ابن حيان وتلاميذه . . قد اكتشفوا كثيرا من العناصر وركبوا آلاف المركبات ، وأن صناعة الصبغة - وهى إحدى الصناعات القائمة على الكيمياء - كانت من مفاخر الدهن العربى .

ولكننا قد نفكر في اتجاه آخر ، فنقرن هذه الحادثة بأمثالها مما وقع ، حين تمت هذه المواجهة الهائلة الدامية، بين مصر وأوروبا في العامين الآخرين من القرن الثامن عشر. التقى الجيشان .. جيش المماليك المصرية – كما كان يدعوهم الجبرتي .. أو أولاد الذوات كما كان يدعوهم بعض المصريين – وجيش الفرنسيين ، كان جيش المماليك انيقا رشيقا ، يلبس أحدهم قميصا من القطن الناعم الابيض فوقه ثوب من القماش الهندي الخفيف ، وفوقه قفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى أطراف الاصابع ، ثم « كرك » بأكمام قصيرة ، وحول رقبته فراء من السمور ، وفوق ذلك كله طيلسان يلف به جسمه جميعه . وفي يده سيفه وفي وسطه خنجره ، ورووا أن مقبض الخنجر الذي كان يحمله أحدهم ، كان يقدر بمائتي ألف جنيه » .

هذا الجيش من الفرسان .. كان يواجه جيشا آخر من المدفعية : ملابسه متواضعة ، وحركته خفيفة ، وزاده قليل ، حتى ان شيخنا الجبرتي يحدثنا بلهجة مليئة بالعجب عن أن نابليون حين أراد الخروج الى بلبيس للاستكشاف ، لم يصطحب معه طباحا .. بل لف دجاجتين في كيس ، وانطلق في طريقه مع ياوره .

وحين التقى الجيشان ، قال قائل المماليك : مال هؤلاء الفرنجة المخنثين والقتال ؟ سنمزقهم بسيوفنا ، وقال قائل الفرنسيين : ما لهذا الجيش يخرج الى القتال كأنه يدعى الى وليمة ؟ سنمزقهم بمدافعنا . وهزمت المدافع السيوف ؟

هؤلاء هم العلماء والحكام ، فأين أبناء البلد .

لننتقل خطوة ثانية مع الجبرتي لفراء يقول لنا : ان محمد علي بعد عشر سنوات من خروج الفرنسيين ، أراد أن يحفظ سجلات للضرائب ، فوضع نظاما يقضى بأن تكتب باللغة العبرية ، لأن معظم كتابها كانوا من اليهود .. وهم الذين يجيدون الحساب والتدوين .

هذه هي مصر في أوائل القرن التاسع عشر .. لا مجال هنا للحديث عن التقدم أو التخلف ، لنقل انها أمة كانت نائمة واستيقظت على هدير المدافع وانهمار القنابل ، حتى الازهر الشريف لم يفقه الفرنسيون من طقاتهم حين اعتصم به العامة والعلماء ، الذين « حين وقع عليهم القنبر وراؤه ، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه ، صاحوا : يا سلام .. من هذه الآلام ، يا خفي الألفاف ، نجنا مما نخاف » والرواية هنا .. للجبرتي رحمه الله ..

ولنقل انها أمة كانت قد لفت خيوط شرفقتها البالية حول نفسها ، قاعة برزقها يأتيها رغدا أو غير رغد ، مستسلمة الى تيار الاقدار الساكن ، طغمة حاكمة من الممالك ، وأعوان لهم في جمع المال من أبناء الطوائف المختلفة ، ومجموعة من العلماء تدرس الفقه والأصول ؛ وفلاحون يعملون كثيرا ويأكلون قليلا ؛ ولا يتعلمون أبدا ..

كانت الصورة مؤلمة حقا ، وقد فطن اليها طائفتان من الناس ، أو لنقل « طائفة ورجل » ..



« الرجل » ..

ولنبدا بالرجل :

كانت أقصى رتبة وصل اليها في جيش الاتراك ، وهو الباني جيل ، هي رتبة « سرشمة » ، أي قائد ألف ، وكانت مهمته هي حفظ أقوات الجيش ومؤنثته ، وكان المقرر أن يخرج من مصر كما خرج بقية الجيش ، ولكنه داور وناور حتى استطاع البقاء والاستيلاء على السلطة ، لأنه ايقن أن الثمرة ناضجة لمن يستطيع أن يقطعها ،

وانه يستطيع ان يجعل من مصر عاصمة ملك كبير له ولذريته من بعده .

وكان «محمد على» من أكثر الناس وعيا للدرس الذى القته الحملة الفرنسية على مصر ، ولكن بطريقته الخاصة . . طريقة الجندي العثماني ، الأمي الذى لا يقرأ ولا يكتب ، والحاكم المطلق الارادة والتصرف ، الذى يضع كل شيء فى خدمة أفراضه الحرية والسياسية .

ولتعد للجبرتي . . نراه يحدثنا عن غضب الجند العثمانيين والماليك ، حين أرادهم محمد على أن يلبسوا «الملابس المقمطة» التى كان يلبسها الفرنسيون . وذلك حين أراد تنظيم جيشه على النظام الاوروبى .

ولكن هذه النزعة الاوربية . . كانت عواء تنظر بعين واحدة . لم يدرك محمد على من أوروبا الا صناعاتها الحربية ، أما حضارتها وفنونها وحقوق محكومياتها على حكامها ، فلم تكن تخطر له ببال ، كان محمد على آية زمانه فى الظلم والقسوة والتعذيب ، والجشع الى المال . . كما كان حاكما مطلقا الى حد لم يعرفه العصر الحديث ، فقد كان «نابليون» الابن العاق للثورة الفرنسية ، قد أنشأ ديوانا من المصريين لمناقشة المسائل العامة ، ورغم أن هذا الديوان كان نوعا من الزينة أو «الاكسسوار» الا أن «محمد على» كان يستطيع أن يمضى به ويدعمه ، ويدع المصريين يمارسون من خلاله لونا من الديمقراطية الساذجة ، ولكنه - على عكس ذلك - لم يحاول بعثه ، ولم يقرب اليه أحدا من المصريين ، ولم يشركهم فى جهاز حكمه . .

ولتقرأ قائمة ببعض الرجال الذين عهد اليهم محمد على المسئوليات العامة ، فلن تجد فيها مصريا واحدا . . كان وزراء تجارته على التوالي «باغوص بك» أو «يوسف كنعان» الارمنيين :

وكان مدير جماركه «كرابيت» الارمنى وكان سلحداره سليمان أغا،
وكان خازنذاره «محمود بك» التركيين وكان دفتر داره «محمد بك»
صهره ، وكان ولاته جميعا على الاقاليم ، من الاتراك ..
ويصف الجبرتى هؤلاء الحكام الجدد بقوله :

«ترأسوا ، وعلت أسافلهم ، ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا
البغال والرهوانات .. وأخذوا يبيوت الأعيان- التي بمصر القديمة
وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين وجنانين ، وذلك خلاف
البيوت التي لهم بداخل المدينة ، ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه
عدة من الخدم والقواسة .. يطردون الناس من امامه وخلفه ..
ولا تريد هنا أن نبالغ في تهوين شأن محمد على . فقد كان على أى
حال حاكما شرقيا تقليديا ، ولكنه نشر مناخا من البقطة والتفتح
ربما لم يكن هو شخصيا مدركا لابعاده ، وذلك حينما أراد أن يجعل
من مصر ضيعة هو مالكيها وصاحبها الوحيد ، فكان مثل صاحب
الضيعة الحريص يريد أن يجعلها تؤتي أحسن الثمرات ، فيستغل
كل الوسائل فى سبيل تنمية انتاجها .

وثمة شيء آخر أدركه محمد على ، وهو أن التفوق الحربى
لا يتاح الا بمعرفة علوم الحرب ، ومن هنا أقدم على الخطوة الثورية
العظيمة فى تاريخ مصر ، وهى إرسال بضعة من الشباب الى اوربا .
ومن الحق ان معظم هذه البعثات كانت للتخصص فى أمور الحرب ،
هندستها ومعداتا وطبوغرافيتها ، ولكن العلم لا يتجزأ ، والتفتح
العقلى لا يمكن توجيهه ، والاستفادة لا تحجزها الاسوار .

لنقل اذن .. عن «محمد على» كما قال شيخنا الجبرتى :
« فلو وفقه الله لشيء من العدالة ، على ما فيه من العزم
والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة .. لكان أعجوبة زمانه وفريد
أوانه » .

ولنصف الى حديث الجبرتي . . أن محمد على بهذه الخصال
التي أفسدها ظلمه . . قد صنع هذا المناخ الذي أنبت الفريق
الثاني ممن هزتهم المواجهة بين مصر وأوربا ، أو بالأحرى ، الذي
نما فيه هذا الفريق وازدهر ، حتى امتد أثره خلال قرن ونصف
قرن من الزمان صانعا مصر الحديثة ، خالقا لتقدمها وتطورها ،
مثيرا لعقلها ووجدانها ، مغيرا لذوقها ومشربها . متطلعا الى بناء
مصر الحديثة الاصيلية .

الشيخ العطار

هذا الفريق الذي يبدأ بالشيخ حسن العطار ورفاعة الطهطاوى،
وينتهى بكل من يكتب حرفا صادقا فى هذا البلد ، صحفيا كان أو
أديبا أو عالما أو مفكرا ، ويمتد الى ما شاء الله لهذه الامة أن تعيش،
هذا الفريق هو شرف مصر وعنفوانها ، وشارة تجدها ومصاولتها
لمصائر الزمان ، وعن هذا الفريق نتحدث . .

يبدأ هذا الفريق بداية متواضعة ، فى بيئة علماء الأزهر
الشريف تارة ، وبين أبناء مصر العاديين تارة أخرى . ثم يصل الى
بداية نضجه حين يعود طلبة البعثات الى ديارهم ، ليتحدثوا عما
راوا ، ويكتبوا ما شاهدوا . ولسان حالهم يقول : من كان له أذنان
للسمع فليسمع . . هذه أوربا وهؤلاء نحن ، فانظروا أى وجهة
تبتغون . حتى لاتنخدعوا كما انخدع آباؤكم بخدعة السائل الابيض
حين يحمر أو يخضر أو يفرقع .

أما فى بيئة الأزهر الشريف ، فحق علينا أن نبدأ بهذا العقل
المستنير فى تاريخ مصر الحديثة . . الشيخ حسن العطار ، تلميذ
الجبرتي وصديقه ، واستاذ رفاعة الطهطاوى وصديقه أيضا ، وشيخ
الأزهر حقبة من أيام محمد على .

فوجيء العطار ، الأزهرى الشاب ، بمجىء الحملة الفرنسية،

فخاف وفر فيمن فر من العلماء الى الشام ، فلما هدأت الامور .. عاد الى مصر ، واتصل بهم وخالطهم وأحب كثيرا من عاداتهم ووسائل حياتهم ، والتقط بعض الفاظ لغتهم ، وتردد كثيرا على مجمعهم العلمى بل وتغزل بيناتهم السافرات .

كان يقول - كما يحدثنا على مبارك فى خططه التوفيقية - «ان بلادنا لابد ان تتغير احوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ، وكان يتعجب مما وصلت اليه تلك الامة الفرنساوية من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة »

وفى هذه العبارة الأخيرة .. فطنة لمنهج التعليم الحديث من حيث تبريب الكتب ، وسهولة الاسلوب والعرض ..

ومن الحق ان «العطار» لم يحاول فى أثناء مشيخته للزهر ان يثبت فيه بعضا من الروح العلمى الحديث كما فعل «محمد عبده» حين تولى الافتاء ، ولكنه اكتفى بأن ينير ذاته وعقله بفضوله الذهنى اليقظ وتطلعه الى ادراك المعارف العصرية ، ثم أخيرا بأثره فى تلميذه العظيم رفاعة رافع الطهطاوى ، ألمع ذهن مصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ومن حقه أن نفرد له موضوع حديثنا القادم .

أما بين ابناء مصر العاديين ، فلنذكر أن هذا النشاط اليقظ ، وهذا المناخ الفوار - الذى أتاحه حكم محمد على - قد انعكس على عامة المصريين ، فلا بد أنهم حين فوجئوا بالمعامل والمصانع والمدارس والمستوصفات .. أحسوا أن ثمة شيئا جديدا يحدث ، ولابد أن ذوى الملكات منهم قد طمحوا الى أن يتاح لهم انماء ملكاتهم ، ولتقرأ قصة أول مخترع مصرى من فم الجبرتنى مؤرخنا العظيم .

أول مخترع مصرى

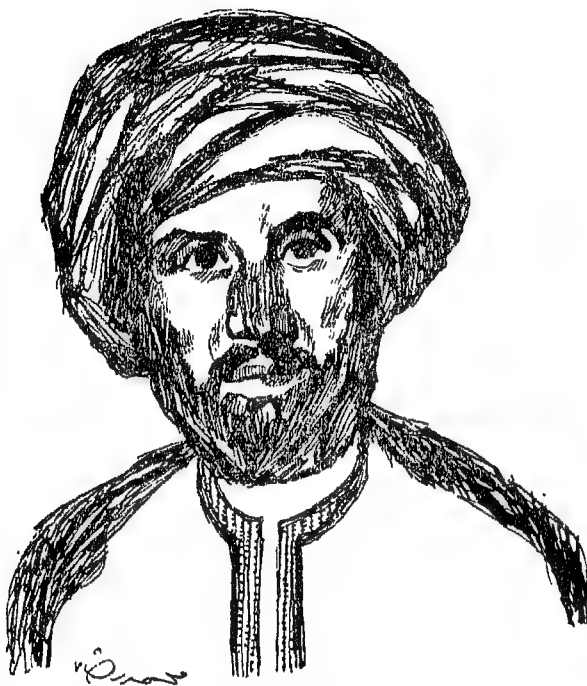
كان اسم أول مخترع مصرى « حسين شلبى عجوة »
 اذ علم محمد على أن مصرنا من « أولاد البلد » قد اخترع آلة لضرب
 الارز وتبييضه لا تحتاج الى جهد كبير ، فطلبه اليه ، وأعطاه مالا
 وأمره بأن يسير الى دمياط ليقيم فيها مصنعا تستخدم فيه هذه
 الآلة التى اخترعها ، وأمر بأن يسلم اليه ما يحتاجه من الأخشاب
 والحديد وادوات البناء ، فلما أقام المخترع حسين عجوة المصنع ،
 ونجحت آلتة . . أمره بإقامة مصنع آخر فى رشيد ، وأنعم عليه
 بمال مكافاة له . .

وهكذا بدأت مصر تمضى فى طريق الحداثة والمعاصرة ،
 وتنتقل خطوة بخطوة من ظلام القرون الوسطى الى ساحة العصر
 الحديث . من الحق أن الظروف الاقتصادية والسياسية التى مرت
 بها مصر ، قد أثرت أثرا بالغا فى تحديد خطى هذا الطريق ومجالاته ،
 ولكن التيار الاغلب ، بلاشك . كان هو تيار الاستنارة الذهنية
 والعقلية والوجدانية ، الذى قاد مصر فيه ادباؤها ومفكروها
 وعلمائها وفنانوها . . وعن معالم هذا الطريق نتحدث حديثنا
 المتعدد الحلقات ، مثيرين القضايا الكبرى فى تاريخ الوجدان المصرى
 مثل قضية الانتماء بين نزعاتها الفرعونية السلفية والعربية المعاصرة ،
 ومثل قضية الفكر المصرى بين السلفية والتغريب ، وغير ذلك من
 القضايا الحيوية التى اصطرخ عندها الراى ، واشتد فيها الجدل ،
 حتى اهتدت مصر الى صورتها المحدثنة . . كدولة مسلمة عربية
 عصرية ترجو أن تمضى خطاها على طريق الحضارة والتقدم .

ومن خلال هذه القضايا . . سيبرز دور الاسماء النيرة فى
 هذا التاريخ الزاهر . رفاعة الطهطاوى والافغانى ومحمد عبده
 ولطفى السيد . وغيرهم . . سلسلة ذهبية ، أقباس يأخذ بعضها
 من نور بعض . .

المندهش الأعظم

٢



- الفلاحون صنعوا معجزة القناطر الخيرية !
- هل الحجر الصعي حرام أم حلال ؟
- نقل العلوم البرانية الى أرض مصر !

- ١ -

الدهشة هي ينبوع كل فكر عميق . لان الدهشة تقلق النفس الساكنة الفاترة ، وتبعث فيها دوامة التساؤل . وإذا بدأ الانسان بسؤال قاده السؤال الى المعرفة . وبالمعرفة يعرف الانسان مكانه على أرض الحياة والواقع ، ويقيسه الى مكان غيره من البشر ، وقد يطمح بعد ذلك الى تغييره أو تحسينه ، فلا شك أن القاية الرئيسية للمعرفة هي المقدرة على تغيير العالم ، والسعى الى ذلك المقصد ، الذي هو مبرر وجود الانسان على الأرض .

وهناك نوعان من أدوات الاستفهام ، أولهما فائر سناكن ، مهمته — حين يتلقى الاجابة — هي تسجيل الظواهر والرضا عن الكائن والموجود ، والآخر متحرك مهمته البحث عن الوسيلة والغاية. نحن قد نرى آلة حديثة كالعقل الالكتروني مثلا ، فنسأل : متى اخترعت ، وأين كان ذلك الاختراع ، والكلمتان «متى» و «أين» عندئذ كلمتان فائرتان ساكنتان ، ولكننا لو سألنا .. كيف وصل اليها العقل البشرى ، ولماذا أنشأها . فقد حركنا معرفتنا أو تحركنا بها خطوة نحو المجهول ، وحاولنا أن نجوس في أرجائه لعلنا نجد فيها موزعا لأقدامنا المترددة ، أو لعقلنا الخجول .

وقد كان العقل العربى فى عصور التخلف قائما بالأسئلة الساكنة ، التى لا تعبر عن الدهشة ، ولكنها ترضى بمجرد التسجيل . وحين عرفنا الأسئلة المحركة المتحركة استطعنا أن نتلمس سر العقل الحديث . وأن نستنشق هواء العصر الحديث .

والمدهش الأول فى تاريخ الوجدان المصرى هو رفاعة الطهطاوى بلا شك ، ولد فى نفس العام الذى خرجت فيه فلول الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١ ، فى احدى مدن صعيد مصر الصغيرة ، من أسرة تمت بصلة عميقة الى السلف الصالح ، فأبوه من نسل الرسول ،

وأخواله من نسل الأنصار . ونحن نعرف في أرض مصر هذا الاعتراز بالأنساب الطاهرة ، وكيف يعكس على أصحابه زهوا أحيانا . . وخلقاً كريماً أحيانا أخرى ، ولكنه ينتج في غالب الأحيان - وبخاصة في ذلك الزمان - لونا من الكرامة يدل به أصحابه أو يتسامون به الى مناظرة الأرستقراطية التركية والمملوكية المستجلبة الى مصر . وفي ظل هذا النسب الكريم والفقر الطارئ ، ولد رفاعة الطهطاوى ، وقد تكون علة هذا الفقر الطارئ هي نقل «محمد على» ملكية الأرض الزراعية الى الدولة ، حين ألغى نظام الالتزام ليقوم مكانه نظام الاحتكار ، اذ نزع محمد على الأرض الزراعية التي كانت تحت أيدي الملتزمين ، والتي كان الفلاحون يزعمونها ويدفعون ضريبتها لهم واعتبرها ملكا للحكومة ، وكان معظم هؤلاء الملتزمين من عمد البلاد ومشايخها وأعيانها . فانتقل الكثيرون من حال اليسر الى حال الفقر والاملاق .

وتنقل أبو رفاعة برفاعة بين أقاربه وأخواله ، وهو يحفظ القرآن ، ويقرأ العلوم السلفية على مشايخ منطقته ، ثم هجر الصعيد الى القاهرة في أسبوعين ، وفي الأزهر التقى بالشيخ حسن العطار ، الذى علمه علوم الأزهر ، وأيقظ ذهنه الى محاولة اكتساب المعارف العصرية ، التى كان الشيخ الكبير مولعا بها ، حتى انه ألف كتابا في الطب ، وكان يقرأ بعض الكتب فى الفلك والجغرافيا .

وبعد خمس سنين من مجاورة الفتى الصعيدى فى الأزهر جلس الى أحد أعمدته ليعلم ويحاضر ، وكانت أمه قد باعت فى هذه السنين بعض حليها وعقارها ، لتضمن له خبز الأزهر وعدسه وقوله ، وهو الطعام الذى حدثنا عنه «طه حسين» فى كتابه «الأيام» بعد قرن من الزمان ، وأوجز فى العبارة حين قال : « وويل للأزهريين من خبز الأزهر » .

ويذكر لنا تلميذ رفاعة ومؤرخ سيرته « صالح مجدى » أحد قطاب المترجمين فى القرن التاسع عشر ، ان رفاعة كان يستعين

على أمور حياته حينئذ باعطاء بعض الدروس الخصوصية لحسين بك طبوز أوغلى أحد أولاد الذوات ، كما كان يلقي بعض الدروس في مدرسة أخرى أنشأها «محمد بك لاذ أوغلى» لتعليم أولاد المماليك . وبعد سنين قليلة . . نحول رفاة الطهطاوى من سلك الأزهر الى السلك «الجهادى» ، اذ عين واعظا واماما بالجيش ، وفى عام ١٨٢٦ ، وعمر رفاة خمس وعشرون سنة ، وافت محمد على فكرته الثورية ، حين خطر له أن يرسل بعض الشباب الى أوروبا ليتلقوا العلم فى باريس ، وأراد أن يختار للبعثة اماما وواعظا ، فطلب من الشيخ حسن العطار أن يرشح له أحد علماء الأزهر . . فاختار الشيخ تلميذه رفاة ، وأوصاه بأن يسجل ما يراه فى هذه الرحلة فى كتاب . ولم يكن من مهام الامام أو الواعظ أن يدرس أو يتعلم ، بل أن يؤدى بأعضاء البعثة شرائع الدين ، وقد سافر مع رفاة ثلاثة آخرون من الأئمة ، فلم يعن أحد منهم بأن يتعلم الفرنسية أو يقرأ علوم الفرنسيين .

بعثات محمد على :

كان تركيب بعثات محمد على مختلطا ، لا تركيا أو شركسيا خالصا ، كما يحلو لبعض المؤرخين أن يزعموا ، كان فيها بعض أبناء المماليك المشتريين ، ممن كان يشتريهم الوالى ، ثم يسلمهم الى «حسن أفندى الدرويش» فى القلعة ، ثم الى «روح الدين أفندى» ليتولى الاشراف على خلقهم وتصرفاتهم ، وكان فيها أيضا بعض النابهين من الشباب المصريين ، كان فيها محمد أفندى بيومى من دهشور وأحمد دقلة بك من بسيون غربية ، وأحمد طائل أفندى من بلتان قليوبية مركز طوخ ، وأحمد بك السبكى من سبك الثلاث ، وحسن بك نور الدين من سنهور غربية ، ومحمد على البقلى باشا الجراح العظيم من زاوية البقلى بالمنوفية ، وإبراهيم بك النبراوى من نبروه غربية ، وحمامد عبد العاطى باشا من أبو تيج ، وعبد الله بك

السيد من الغيوم ، وآخرون وآخرون من شباب مصر وأبناء طينها وترابها . فليذكر المؤرخون ، الذين يحاولون المغالة في الاساءة الى محمد على ، بتصوير اختياره لأعضاء البعثات مقصورا على أبناء الترك والمماليك ، أنهم يسيئون أيضا الى مصر كما يسيئون الى الحقيقة ، فقد أصبح هؤلاء الشباب بعد عودتهم هم صناع اليقظة المصرية الحديثة وأعلام تاريخها الفكرى والعملى ، وليس من اللائق فى حقنا أن نزعهم كأنهم كانوا جميعا من غير أبناء البلاد ، وليكف هؤلاء المؤرخون عن هذا الاجتهاد الضار ، وليذكروا رئاسة «كلوت بك» ، وهم الذين أنشأوا القناطر الخيرية - معجزة الرى فى ذلك الزمان - تحت اشراف المهندس الفرنسى «موجيل» ، وأن واحدا منهم هو «على باشا مبارك» من قرية تدعى (برمبال) هو أبو التعليم فى مصر بعد رفاعة .

عود الى رفاعة :

وأبحر رفاعة مع البعثة الى باريس ، وركب السفينة الحربية «لاترويت» من الاسكندرية ، ومن ذلك الحين أصابته الدهشة ، لقد أصابته دهشة متواصلة لمدة ست سنوات ، هى سنوات رحلته واقامته فى فرنسا ، وسجل يوميات دهشته فى كتابه العظيم «تخليص الأبريز فى تلخيص باريز» .

بدأت دهشته لنظافة السفينة ونظافة الفرنسيين بوجه عام مع أن النظافة من الايمان ، وليس عندهم منه مثقال ذرة . . . كما قال ، وزادت دهشته اذ حجزوا فوج المسافرين فى الحجر الصحى أو «الكروتينة» حين نزلوا مرسيليا ، ووقف ليتسائل على عادته الفقهية : هل الكروتينة حرام أو حلال . . . وأورد حجج من قالوا بتحريمها حين أفتوا بأنها هروب من القضاء ، ولا يهرب من قضاء الله الا كافر ، وقال آخرون انها حلال . ولم يورد رفاعة حججهم ، ثم استبدت به الدهشة حين رأى مكان الحجر الصحى نظيفا مليئا

بالرياض والخياض ، ولكن الحيرة الشديدة كانت حين أمروا لهم بالطعام ، ولترك رفاعة المندھتى العظيم يحدثنا بعبارته ، فيقول :

•• ولم نشعر في أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة في غالبها ، وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنسأوية ، لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسي للجلوس عليها ، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الأرض فضلا عن الجلوس بالأرض ، ثم مدوا السفرة للفظور ، ثم جاءوا بطبليات عالية ، ثم رصوها من الصحن البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من القزاز ، وبسكين وشوكة ومعلقة ، وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء ، وناء به ملح وآخر به فلفل ، ثم رصوا حوالى الطبلية كراسي ، لكل واحد كرسي ، ثم جاءوا بالطبخ ، فوضعوا في كل طبلية صحننا كبيرا أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع ، فيعطى لكل انسان في صحنه شيئا يقطعه بالسكين التى قدامه ، ثم يوصله إلى فيه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل الانسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره أو سكينته ، أو يشرب من قدحه أبدا ، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة » •

ويمضى رفاعة الطهطاوى ليدخل أحد المقاهى المنتشرة في مارسيليا ، فيجده تحفة رائعة في أناقته ومراياه (لوهرى ليس مجمعا للجرافيش ، بل هو مجمع لأرباب الحشمة ، والفهوجية (صاحبة الأهوة) جالسة على صفة عتيمة ، وفوجى بالجالسين يمسكون أوراقا في أيديهم عرف أنها أوراق الوقائع اليومية أو الصحف .

ثم كانت باريس ••

وفي باريس •• التقى رفاعة الطهطاوى بكثير من المفاجآت ، لعل أول مذكره منها هو عربة الرش (فان أهل باريس مثلا ، سهل

عندهم رش ميدان متسع من الأرض وقت الحر ، فانهم يصنعون دنا عظيما ذا عجلات ، ويمشون العجل بالخيول ، ولهذا الدن عدة بزاييز مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع ، فلاتزال العجلات ماشية ، والبزاييز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة في نحو ربع ساعة ، لا يمكن رشها بجمله رجال في أبلغ من ساعة ، ولهم غير ذلك من الخيل ، فمصرنا أولى بذلك لشدة حرها .

وتذكرنا عبارته الاخيرة . . بعبارة لاحقة يقولها عن ميادين باريس أو فسحاتها كما يسميها ، حين يقول : وفي هذه المدينة عدة فسحات عظيمة تسمى المواضع ، يعنى الميادين ، كفسحة «الرميلة» بالقاهرة ، فى مجرد الاتساع ، لا فى الوساحة . . ولنضع خطين تحت تعليقه الأخير ، فسوف نلتقى بكثير من أمثاله فى مجال المقارنة بين مصر فى أوائل القرن التاسع عشر وفرنسا فى الوقت نفسه والأوان نفسه ، ولنذكر أن رفاة كلما مضى صفحات فى كتابه ، قلت لهجة الحديث عن التحريم والتحليل ، لتبدأ لهجة الحديث عن الفائدة والجدوى .

لنسمعه يقول : « أن من العوائد العظيمة للفرنسيين انتشار لبس القمصان والألبسة والصدريات تحت ملابسهم ، فإن الموسر يغير فى الأسبوع عدة مرات وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش ، فلذلك كان لا أثر للقمل ونحوه الا عند من اشتد بهم الفقر » ولنذكر عندئذ أنه ربما كان يعرض بمن لا يغيرون ملابسهم الا اذا اهترأت على أجسامهم .

التياتر :

ورأى الشيخ رفاة المسارح فى باريس ، وحدثنا عنها حديثنا شائقا :

« فمن مجالس الملاحى عندهم مجال تسمى (التياترو) (بكسر التاء المتشدة وسكون التاء الثانية) والسيكتاكل وهى يلعب فيها تقليد سائر ما وقع ، وفى الحقيقة . . أن هذه الأعمال هى جد فى صورة هزل . . فان الانسان يأخذ منها عبرا عجيبة ، وذلك لانه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى وذم الثانية ، حتى أن الفرنساوية يقولون : انها تؤدب أخلاق الانسان وتهذبها ، فهى وان كانت مشتملة على المضحكات فكهم فيها من المبكيات وصور هذه التياترات أنها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة ، وفيها عدة أدوار كل دور له أود (غرف) موضوعة حول القبة من داخله ، وفى جانب من البيت مقعد متسع (يقصد الخشبة) . . وتحت هذا المقعد محل للآلاتية . . ثم ان النساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم فى مصر . . واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم ، وفصاحة ، وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التآليف الأدبية والأشعار : وباجملة . . فالتياتر عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل» .

وفى باريس . . رأى رفاعة الى جانب المسارح دور الاستعراض ومسارح الأطفال والقبة السماوية التى أطلق عليها « أورانونورمه » وأطل على باريس ليشهد (البانونورمه) أو البانونورما ، وشهد حفلات الرقص والغناء « ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والتسلبنة لا من الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص فى مصر . . فانه من خصوصيات النساء لانه لتهييج الشهوات ، واما فى باريس فانه نمط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدا . . وكل انسان يعزم امرأة يرقص معها فاذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة التالية . . وهكذا . . سواء اكان يعرفها أم لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص بهن . . . »

فعل الخير :

وينهى رفاة نزهته فى أنحاء باريس ، فيحدثنا عن حدائقها وقصورها ، ويجول فى الشانزليزيه والبوار ، والحمامات والمغاطس ، والقصور والمنازل المزينة بأرق ألوان الفن والذوق ، وقصور الملوك التى تتحول الى متاحف يوما فى الأسبوع فيؤذن للناس أن يطوفوا بها ، ثم عن دور الكتب العامة التى تحتوى احداها على أربعمئة ألف كتاب ، والتى وجد فيها مبلغا عظيما من الكتب العربية التى يندر وجودها بمصر أو غيرها ، كما وجد فيها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا . ومنها دار كتب أخرى أو خزانة كما يسميها رفاة فيها مائتا ألف مجلد ، ثم انتقل الى المتاحف أو خزائن المستغربات كما يسميها ، فحدثنا عن متاحف النبات والمعادن والفنون ، وبعد جولته فى المتاحف حدثنا عن مرصد باريس أو « المرصد السلطاني » ثم « الأكيمات » أو الأكاديميات خاصة بالذكر الأكاديمية الفرنسية التى تتكون من أربعين عضوا ، والتى تهتم بتأليف القواميس الفرنسية . وكانت وقفة رفاة الطهطاوى المتأنية ، عند الصحف والصحافة . . استوقفته هذه الصحف ، حين دخل المقهى فى مارسيليا لأول مرة ، فرأى عددا كبيرا من الجالسين ، وقد مد كل منهم أمامه صفحات من الورق المطبوع ، ثم ما لبث أن رأى الفرنسيين لا يستغنون عن مثيلات هذه الأوراق ، وأدمن مطالعتها فوجد فيها كثيرا من الفوائد الشاردة .

« ومن الأشياء التى يستفيد منها الانسان كثيرا من الفوائد الشاردة . . التذاكر اليومية المسماة بالجورنالات ، جمع «(جورنال)» وهو يجمع فى اللغة الفرنسية على « جرنو » وهى ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ما وصل اليهم علمه فى ذلك اليوم ، وتنشر فى المدينة وتباع لسائر الناس . . وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر المقاهى ، وهذه « الجورنالات » . . مأذون فيها

— لسائر أهل فرنسا — أن تقول ما يخطر لها ، وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنا أو قبيحا ، وأن تقول رأيها في تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ، ما لم تضر بذلك .. فانه يحكم عليها ، وتطلب بين يدي القاضي» .

موقفان :

وتنتهى سياحة رفاعة الطهطاوى فى باريس بعد ست سنوات ليعود الى مصر ، وقد حاولنا هنا الامام بجانبها الذى اكتسبه ببصره ورؤيته ، اما جانبها الذى اكتسبه ببصيرته وعقله ، فله حديثنا اللاحق .. حيث نحاول أن نتبع ما اكتسب من الثقافة والمعرفة ، وما درس من العلوم والفنون ، وما اشتغل به قلبه من الرغبة فى الاصلاحات الدستورية والتشريعية والعلمية ، حتى اذا نزل الى أرض الوطن جعل همه أن ينقل يلاذه من القرون الوسطى الى العصر الحديث ، وأن يؤلف كتابا ، ويؤلف الى جانبها رجالا وتلامذة ، يهبهم من علمه وذكاؤه ودأبه ، ويوقظ فيهم روح التوق الى المعرفة .

ان بين الجبرتى والطهطاوى بضع عشرات من السنين ، ولكن ما أكثر ما اختلفت لهجتاهما فى الحديث عن علوم الغرب ، أما الجبرتى فقد قال حين شاهد حيل الكيمياء : «ولهم (أى للفرنسيين) فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة تنتج عنها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا)» .

ولكن رفاعة الطهطاوى قال :

وانطلقتها (أى كتبه) بحث ديار الاسلام على البحث فى العلوم البرانية والفنون والصنائع . فان كمال ذلك ببلاد الافرنج ثابت شائع .

انه الفرق بين العقل الذى اندهش فظل ثابتا فى مكانه .

والعقل الذى اندهش فتحرّك وحاول أن يحرك سواه من العقول ، ولنتوقف قليلا عند تعبيره « العلوم البرانية » فقد فطن هذا الرائد العظيم الى أن هناك نوعين من العلوم ، علوما جوانية تعنى بالروح الانسانية ، كعلوم الدين والفقه . . وعلوما أخرى لم تكن تعرفها مصر تعنى بتجربة الانسان وحياته على الأرض ، وتيسر له أموره ومساعاه ، وتنظم له مسيرته وخطاه . . هذه العلوم من هندسة وكيمياء ومساحة وفلك وطب وصيدلة ، هى ما حاول رفاعة العظيم - الشاعر الناصر الأزهرى النشأة - أن يستنبته فى تربة مصر الكريمة المعطاء .

- ٢ -

لم يعش الشيخ الصعيدى فى باريس مفتوح العينين فحسب ، بل عاش متفتح القلب والوجدان كذلك ، ولم يقنع بأن تحمله قدماء الى مسارحها ومقاهيها وحدائقها وطرقاتها ، بل لقد حمّله طموحه الى لب ثقافتها وعلمها وفكرها . ولقد خلف لنا رفاعة الطهطاوى قائمة بما قرأ فى باريس من كتب ، فاذا بها تنتقل به فى دائرة العلوم التطبيقية والانسانية من الهندسة من طرف حتى ميثلوجيا الاغريق فى طرف آخر ، واذا بثلاثة أسماء تبرز فى أفق هذه الثقافة ، هى أسماء الحكماء الثلاثة ، الذين كانوا حتى ذلك الوقت ، هم ضمير أوروبا ومبعث تيارات فكرها السياسى والفلسفى . هذه الأسماء الثلاثة . . هى أسماء مونتسكيو ، وفولتير ، وجان جاك روسو .

كان هؤلاء الثلاثة . . هم الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس فى القرن الثامن عشر ، أو عصر العقل الأوروبى ، وهم الذين مهدوا للثورة الفرنسية التى أرست حقوق الرعية على الراعى ، ونصبت العقل معيودا تقدم له القرايين وتقام له الشعائر ، وهم الذين انبعث من تراثهم فكر الثوار الرومانتيكيين فى الفترة التى عاشها رفاعة سواء فى مجال السياسة ، أو الأدب ، أو الإصلاح الاجتماعى

الدينى ، وكان هذا الشيخ الصعيدى كان يخلق فى الآفاق نفسها
التى يخلق فيها المثقف الأوروبى لذلك الزمان .

أما «مونتسكيو» فقد وهب أوروبا نظرية سيادة القانون ، حين
روج لمبدأ الفصل بين السلطات فى معرض حماسه للنظم الانجليزية
ومحاولته استنباطها فى القارة الأوروبية . . التى لم تكن تعرف عندئذ
الا الملكيات المطلقة ، التى يندرج الناس تحت طاعتها بمقتضى الحق
الالهى ، والتى تجتمع فيها السلطات فى يد الحكم المستبد المطلق .
عادلا كان أو طائشا . فاذا بمونتسكيو يتحدث عن السلطات
التنفيذية والتشريعية والقضائية ومجال عمل كل منها وحدوده ،
واذا بهذا الفصل هو الملمح الرئيسى فى كل الدساتير المحدثه فى
ظل الديمقراطية البرلمانية ، ثم هو المطمح الرئيسى لكل أمة هبت
تطالب بدستور يعطى لكل ذى حق حقه ، ويفصل فيما قد ينشعب
بين الأمة وحكامها من نزاع . .

وألهم « فولتير » أوروبا الا حجة ولا حكم الا للعقل ، واننا
سواسية ازاء ما يصدره من أحكام أو يراه من رأى ، وان علينا أن
نعتك حجب الأوهام السائدة ، بحيث لا تخضع ارادتنا أو تصرفاتنا
للأفكار الجاهزة ، أو التقاليد المسيطرة ، التى تزدد نفوذا كلما
ازداد عقلنا ضعفا وتهالكا عن التفكير الواقعى فيما يدور حولنا من
أمر وأحداث .

أما ثالث الحكماء . . فقد دفع الى ساحة الفكر السياسى
بنظريته فى العقد الاجتماعى ، اذ أعلن أن الحكم ليس حقا للملوك
والعاهلين وأتباعهم ، ولكنه تعاقد غير مكتوب بين الحكام والمحكومين
على أن يرفعى الحكام مصالح المحكومين لئلا ينهض المجتمع ويتقدم
ركب الحياة البشرية . فاذا كان الأمر كذلك . . ففى وسع أى طرف
من المتعاقدين أن « يسحب امضاءه » والحكام لن يسحبوا امضاءهم
بالطبع . أما المحكومون فعليهم باليقظة الدائمة ، الى أن الحكام

يراعون شروط التعاقد ويوفون بالتزاماته ، والا حق لهم ان يفسخوا هذا التعاقد الحر بين الطرفين ، فاذا كانت افكار مونتسكيو تقود الى الملكية المقيدة فقد كانت افكار روسو تقود الى الجمهورية الانتخابية .

لفحت هذه الرياح الساخنة عقل رفاة الطهطاوى ، ولعلها ألهته الهابا شديدا ، وليس بعسير علينا أن نتصور مواطننا الشيخ ابن الخمسة والعشرين عاما ، وهو يقضى أيامه فى باريس ، يقرأ الجغرافيا والتاريخ والفلك والهندسة فى ضوء مصباحه الشاحب ، حتى تضعف احدى عينيه ، ويقتنى الكتب حتى تستهلك ماخصص لها من مال ثم تعدو على مال طعامه وشئون حياته ، ويترجم اثنتى عشرة رسالة أو كتيباً ليتقدم بها الى لجنة امتحانه بعد أن ضم الى البعثة التعليمية حين اتضح ذكاؤه وتفوقه . كل ذلك كان وفاء بحق من أرسلوه وانفقوا عليه ، أما هوى نفسه وقرة عينه ، فهو التأمل فى هذه الكتابات الثورية الاصلاحية ، وهو الى ذلك يقرأ الجورنالات والغازيتات أو الصحف والمجلات لكي يستشف من خلالها انباء هذه المعركة الفكرية المشتعلة فى فرنسا بين أنصار الملكية المطلقة وأنصار الملكية المقيدة . حتى تحولت هذه المعركة الفكرية الى ثورة فعلية فى عام ١٨٣٠ ، فتابعها رفاة الطهطاوى مليء القلب بالعطف والتفهم .

فقد خرج «شارل العاشر» ملك فرنسا عندئذ عن الأصول الدستورية . ففرض الرقابة على الصحف ، وحل مجلس النواب قبل أوانه ، وعين حكاما من العسكريين الذين يوالونه ، فتنبا الناس بالثورة ، واحتجبت الصحف ، وأعلن الاضراب العام ، ووزعت المنشورات ، وطارد الشرطة رجال الرأى ، فتداعى الناس الى اللقاء عند القصر الملكي ، ونشبت المعارك بين الشرطة والشعب ، وسلب المواطنون الشرطة سلاحهم ، وانتهت الأمور الى غايتها

بعزل الملك وتولية « الدوق دورليان » ملكا بشروط ارتضاها ارتضتها
الرعية .

ولنقرأ لمواطننا العظيم ، يحكى لنا قصة هذه الأيام الباهرة
فى لهجته المليئة بالتعاطف ، فيقول :

« ظهر الغم على وجوه الناس (اثر فرض الرقابة وحل
المجلس) ، وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور « الغازيتات » أى
« الصحف » التى من عاداتها أنها لا تفتقر عن الظهور الا الأمر مهم ،
فاغلقت الورشات والمعامل والفبريقات والمدارس ، فظهر بعض غازيتات
الحرية أمرة بعضيان الملك والخروج عن طاعته ، ومعدة لمساويه وفرفت
على الناس من غير مقابل ، فلما سمع بذلك رجال الحسبة « الشرطة »
حضروا فى الحال العامة ، ومنعوا الناس من قراءة هذه الغازيتات ،
وخاصروا مطابعها ، وهموا بكسر آلات الطباعة ، وكسروا بعضها . .
فكتب أرباب هذه الغازيتات يعنى رؤساء الفرنساوية الذين يكتبون
فيها « المثقفون واهل الراى بتعبير عصرنا » ورقة انكار « منشورات »
وأشهروها وعددوا نسخها ولصقوها بجدران المدينة ، وأمروا فيها
الرعية بالحرب ، وعينوا محله ، وكان الميعاد فى درب سراية بالرويال
« القصر الملكى » ، فازدحم فيه كثير من الأمم . . فنظم القتال وكان
أكثر المقتول والمجروح من الرعية ، فاشتد غضبهم وعرضوا القتل فى
المحال العامة ، فما مررت بهذا الوقت بحارة الا سمعت « السلاح !
السلاح ! أدام الله الشرطة « أى الدستور » وقطع دابر الملك ! » .
ويمضى رفاعة الطهطاوى فى حكايته ، حتى يصل الى خلع الملك
فيعلق على ذلك الحديث قائلا :

فلو انعم فى اعطاء الحرية لامة بهذه الصفة، لما وقع فى مثل هذه
الحرية ، ونزل عن كرسيه فى هذه المحنة الأخيرة ، لا سيما وقد عهد
الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها ، واعتادوا عليها وصارت عندهم
من الصفات النفسية » .

(*) الشرطة ، بفتح الشين ، تعريب لكلمة «شارت» أى عهد أو دستور .

الدستور !

أما لماذا عهد الفرنسيون هذه الحرية والفوها ، فلأنهم كانوا أسبق الشعوب الى الثورة في عام ١٧٨٩ - أو الفتنة الاولى للحرية . . كما يسميها رفاة ، ولان في بلادهم قانونا مكتوبا يوضح حق الحاكم والمحكوم ، وينراضى عليه الفريقان ، وهو الدستور الذي احتار رفاة في ترجمة اسمه . . فلم يجد الا كلمة الشرطة «بفتح الشين» ترجمة لكلمة «شارت» الفرنسية أو «كارتا» اللاتينية ، التي تعنى العهد والتعهد ، وكانت كلمة الشرط أو الشرطة اقرب الكلمات لهذا المعنى .

وقد بلغ من ولع رفاة بهذا الدستور ، أو الشرطة ، أن ترجم فصوله الرئيسية كاملة ، رغم عنائه البالغ في ايجاد مصطلح عربى يعادل المصطلحات الفرنسية : ولنستطرد لنقول : ان رفاة كان أول من فطن الى صعوبة ترجمة المصطلحات وضرورتها فى وقت واحد ، سواء فى مجال العلوم الانسانية . . كالتاريخ والسياسة والفن ، أو العلوم التطبيقية كالهندسة والرياضة والكيمياء ، وانه عرض على «ابراهيم باشا» أن يقوم بعمل قاموس للمصطلحات الحديثة ، ولكنه مالبث أن أدرك - على حد قوله - أن هذا الأمر يحتاج لعشرة رجال . فأوصى عندئذ تلاميذه فى الترجمة بأن يلحقوا بكل كتاب يترجمونه ، كشفا بالمصطلحات الواردة فيه يذكرون فيه الكلمة الأجنبية ومعناها بالعربية ، ولنذكر اننا الى الآن لم نعد قاموسا للمصطلحات العلمية الحديثة !!

وجد رفاة الدستور الفرنسى ينص على مجلسين : مجلس للأعيان ، ومجلس للنواب ، فسمى الاول «شمبر دوبر» باسمه نفسه ، ثم عربه الى «ديوان أهل المشورة الأولى» ، أما مجلس النواب فسماه «ديوان رسل العمالات» أى «مندوبو الأقاليم» ، وسمى

الناخبين باللكتور ، وسمى لجان المجلس بالبورو . . أى البيرو ، وسمى المحلفين فى النظام القضائى بالجورية ، فقد كانت كل هذه الكلمات غريبة على المناخ الشرقى العثمانى الذى عاشت فيه مصر خمسة قرون قبل حكم محمد على ، اذ كانت الأمور تدار من الآستانة اذا اتصلت بالمستويات العليا من الحكم ، فاذا شارفت مصالح الناس اليومية تركت للاجتهاد الضار للوالى والماليك المحليين ، صفارهم وكبارهم .
أما «محمد على» فقد كان حاكما مطلقا مستبدا لا تزيد مكانته - فى داخل نطاق الامبراطورية العثمانية ، وفى سلم وظائفها العليا - عن مكانة أحد وزرائها ، ويعد نظريا . . خاضعا للصدر الأعظم أو رئيس وزراء الدولة فى الآستانة . أما فعليا . . فقد كان بيده بمصر كل الأمر والنهى والسلطة والتصرف .

وقد كان الدستور أو « الشرطة » هو النص الوحيد الذى عنى رفاعة الطهطاوى بترجمته وادراجه بين فصول كتابه « تخلص الأبرير » ، بل لقد ترجم التعديل الذى أجرى فيه - بعد خلع شارل العاشر وتولية دون دورليان الذى توج باسم لويس فيليب - مقارنا بين النصين . . وكان النص الأول هو دستور فرنسا عام ١٨١٨ الذى أصدره لويس الثامن عشر ، وكان التعديل هو تعديل ١٨٣١ ، وكان رفاعة يتنبأ بالمعركة الدستورية التى دارت فى مصر بين دستور ١٩٢٤ ، الذى افتتح به العهد الدستورى فى مصر بعد تصريح ٢٨ فبراير ، ودستور ١٩٣٠ الرجعى الذى أصدره « صدقى باشا » اثر توليه الحكم منوطا به تصفية الحركة الوطنية المصرية . بل كأنه يدعو المصريين الى أن يهبوا بعد أعوام فى أواخر عهد « اسماعيل » ثم فى عهد « توفيق » للمطالبة بالدستور ، حتى تكون وقفة عرابى أمام قصر عابدين ، فيكون الدستور أحد مطالبه .

الوعى الاجتماعى :

ولعلنا نجد بداية للتحليل السياسى فى حديث رفاعة الطهطاوى

عن أسباب ثورة ١٨٣٠ في فرنسا ، ٠٠ بداية للتحليل السياسي .
العلمي ، الذي يذكرنا بتحليلات الصحفيين الناضجين ، حين يدخلون
القوى الاجتماعية المختلفة في حسابهم ، فلنسمعه يقول :

واعلم ان هذه الطائفة « الفرنسيين » متفرقة في الراى الى
فترتين أصيلتين ، وهما الملكية والحرية ، « بمعنى الليبراليون أو
الرايديكاليون » والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بأنه ينبغي تسليم
الأمر لولى الأمر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشئ ،
والأخرى تميل الى الحرية بمعنى انهم يقولون : لا ينبغي النظر الا الى
القوانين فقط ، والملك انما هو منفذ للأحكام على طبق ما في القوانين
فكانه عبارة عن آلة ، ولا شك ان الرايين متباينان ، فلذلك كان
لا اتحاد بين أهل فرنسا لفقد الاتفاق في الراى ، والملكية أكثرهم
من القسوس واتباعهم ، وأكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء
والحكام وأغلب الرعية . فالفرقة الأولى تحاول اعانة الملك ،
والأخرى ضعفه واعانة الرعية . ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة
تريد أن يكون الحكم للرعية بالكلية . . ولا حاجة الى ملك اصلا ،
ولكن لما كانت الرعية لاتصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن
توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية» .

ها نحن اذن أمام ثلاثة أنواع متصارعة من الحكم ، هى :
الملكية المطلقة ، والملكية المقيدة ، والجمهورية « التى ترد لأول مرة
بهذا المعنى فى اللغة العربية » ، وها نحن أمام تحليل اجتماعى
للقوى المؤيدة لكل من هذه الاتجاهات . وهانحن نلمح أثر «جان
جاك روسو» فى قوله «الرعية لاتصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ،
وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وكاننا نلمح الاشارة
الى انتخاب الحاكم انتخابا خرا من بين المحكومين . . ولكن ليست
العبرة فى كل هذا . . بل ان العبرة فيما يورده رفاة الطهطاوى بعد
ذلك حين يستطرد قائلا :

«وشريعة الاسلام - التى عليها مدار الحكومة الاسلامية - مشوبة بالآتواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها» .

ان الجمهورية اذن - فى رأى رفاعة - ليست بدعا فى الاسلام ولا غريبة عنه ، والخطورة هنا هى فى اطلاق هذا القول فى ظل سيطرة الخلافة العثمانية فى الآستانة . . التى كانت تتوسل بالدين لاقرار سلطانها ، فتروج لنظرية الخلافة وكونها من شرائع الدين ، مع طمس الرأى القائل ان الخليفة ينبغى أن يكون قرشيا هاشميا ، لان خلفاء المسلمين كانوا اتراكيا عثمانلية .

ولنحمد لرفاعة العظيم . . جرأته وشجاعته ، حين نذكر المعركة التى ثارت بعد ذلك بمائة عام ، حين نشر الشيخ «على عبد الرازق» كتابه «الاسلام وأصول الحكم» ، ونفى فيه كون الخلافة ركنا من اركان الاسلام ، فوقعت الواغطة ، وبطش الملك فؤاد بأقرب أعوانه اليه ، وهم الأحرار الدستوريون ، أو العدليون كما كانوا يسمون ، أو أصحاب المصالح الحقيقية والأعيان كما كانوا يسمون أنفسهم . . لان الشيخ على عبد الرازق كان ينتسب اليهم .

ويظل رفاعة ولوعا بالتحليل السياسى حتى آخر أيامه . . احدى عينيه على ما يحدث فى العالم ، والأخرى على وطنه . وتراه وهو فى الثامنة والستين - بعد أن تقدم به العمر ، وأنضجته التجربة - يعود لموضوعه الأثير فى كتابه العظيم الثانى « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » . وهو كتاب فى التربية الوطنية والقومية ، فهو اذن . . جامع لخطرات فى السياسة والاقتصاد والادب والدين والفكر بوجه عام .

كان رفاعة الطهطاوى . . هو أول من أرسى فكرة «الوطن» والوطنية خلال حياته العلمية والتعليمية . فقد كان العرب الاقدمون يستعملون كلمة « الوطن » بمعنى البيت والمنزل ، وحين يقول لشاعر ابن الرومى :

ولى وطن آليت ألا أبيع والأ أرى غيرى له الدهر مالكا

فهو لا يعنى بذلك بغداد أو العراق ولكنه يعنى بيته الخاص الذى أراد بعضهم شراؤه ، ولكن رفاعة يستعمل الوطن بمعنى «مصر» والوطنية بمعنى الاخلاص لمصر ، وقد نضجت عنده فكرة الوطنية المصرية بحيث زالت متناقضاتها السسطحية ، فلا ضير أن تحب الفراعنة وتاريخهم ونفخر بأبوتهم لنا ، ونحب فى الوقت ذاته العرب ولغتهم ودينهم .. ونعتز بأبوتهم لنا .

ورفاعة الشاعر .. هو صاحب كثير من الاناشيد الوطنية التى كانت تتغنى بمصر ، والتى كنا نسمعها بمدارسنا الى عهد قريب . وهى بلاشك أفضل من سخافات موظفى وزارة التربية والتعليم التى تملأ كتب المطالعة الآن ..

ولكن الظاهرة الواضحة فى كتاب «مناهج الألباب» هى فطنة رفاعة لما يسمى الآن بعلم الاقتصاد السياسى ، وهو العلم الذى شغل أوروبا فى القرن التاسع عشر ، والذى قاد ثورتها الاجتماعية بعد أن قادت الفلسفة ثورتها السياسية . ونحن لذلك لا نشك فى أن رفاعة كان دائب الصلة بفكر باريس وهو فى القاهرة ، ولا نشك فى أنه قد قرأ ما كانت تحفل به صحفها من مناقشات وآراء ، ولا نشك انه تتبع أخبار ثورتها الثالثة أو « كومونة باريس » وانه ان لم يكن قد قرأ ماركس .. فقد قرأ عديدا من المفكرين الآخرين، مثل ، سان سيمون وفورييه وغيرهما ..

كان الخلاف حادا حول نظرية القيمة ، أو منبع الغنى والثروة ، أهو الملكية أم العمل . ومن هذا الخلاف نشأت نظرية «فائض القيمة» لماركس . وقد أدلى رفاعة برأيه فى هذا الخلاف قائلا :

« ثم اختلف .. هل منبع الغنى والثروة وأساس الخير والرزق هو الأرض ، وانما الشغل مجرد آلة وواسطة لا قيمة له الا بتطبيقه على الفلاحة ، أو ان الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الأموال المستفادة ، وانه هو الأصل الأولى للملة والأمة .. بمعنى أن الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج ما يحتاجون اليه لمنفعتهم من الأرض أو لراحة المعيشة » *

هذه هي القضية في أجلى بيان .. أما رأى رفاة ، فهو أن العمل - القيمة الرئيسية ، وهو يذهب بهذا الرأى خطوة أبعد ، فيطبقه مصر التي كان الاقطاع قد بدأ ينشأ فيها بتأثير هدايا محمد علي خلفائه ، الى اتباعهم وكبار موظفيهم وانباء الأسرة ونسائها ، وتأثير بدء ملكية الفلاحين للأرض منذ أن أصدر «سعيد» لأئحته المشهورة في عام ١٨٥٤ التي أباحت ملكية الأرض للفلاحين ، فاستأثروا بالأنصبة الكبرى فيها مفتشو الدوائر ومأمورو الدخولية والصارفة .

انه يقول بعبارة واضحة : ان الملاك يسرقون جهد الفلاحين وعملهم ، وان ما يضعونه من رأس مال لا يبرر أن يحظوا بالنتائج كله .. فلا يتركوا للفلاحين الا الفتات القليل ان سمحت مكارمهم .
«ثم ان المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية ، المجتنى من هذه الاصلاحات الفلاحية الناتجة في الغالب عن العمل .. هو طائفة الملاك .. حتى لا يكاد يكون لغيرهم شيء من محصولها ، فلا يعطون للأهالي الا بقدر الخدمة والعمل ، على حسب سمح به نفوسهم في مقابلة المشقة» *

ولننظر هذه الكلمة .. التي تذكرنا بتحليل الاقتصاديين المحدثين لظاهرة الاحتكار ونتائجها :

«(فيترتب على هذا .. أن كل من يريد من الأهالي أن يتعيش من الخدمة التي هي العمل • يصير مضطرا لأن يخدم بالمقدار الذي يتيسر له أخذه من الملاك بحسب رضائهم ، ولو كان هذا القديسيرا

لا يساوى العمل ، لا سيما اذا وجد بالجهة كثير من الشغالين ، فانهم يتناقصون في الأجر ويتنافسون في ذلك لمصلحة صاحب الأرض » .

وينتهى رفاة بأن يحكم بأنه لا يجوز أن يستأثر أصحاب الأرض بناتجها ، فهي دون الفلاح لن تعطى شيئاً ، ويتهم حجج الاقطاع بأنها ليست الا مغالطة .. ويؤكد أن قانون العرض والطلب حين يتعرض للأجور قانون باطل مجحف ، وأن صاحب الحق الأول فى ناتج الأرض هو الفلاح الذى زرعها ، لا المالك الذى اجتواها وامتلكها .

من هو لنا :

ان رفاة الطهطاوى لشخصية عقلية وفكرية أكبر من أن يحاط بها فى بضعة أحاديث ، وقد توخينا فى هذا المجال .. أن نلم بالقضايا الكبرى التى أثارها ، ولو أردنا أن نحدد مكانه فى الفكر المصرى الحديث قلنا انه يمثل بالنسبة لنا ديدرو وفولتير وروسو ومونتسكيو مجتمعين ، وأنه يتجاوزهم - بالنسبة لنا - بدوره العملى فى انشاء مدرسة الألسن ، وتوجيه خطاها ، وفى خلق خمسين مترجماً أو يزيد ، وفى توجيه خطى الصحافة المصرية الناشئة فى الوقائع وروضة المدارس .

كما أنه هو الأب الفكرى لكل اتجاه اصلاحى وتقدمى عرفته مصر ، فهو السلف الصالح لكل خلف صالح .. السلف الصالح لعلمى هذه الأمة الكبار مثل : على مبارك ومحمد عبده وطه حسين ، ولثوريها العظماء مثل : عرابى وعبد الله النديم وسعد زغلول ، ولصحفيها النابيين وأدبائها المبدعين .

فى عام ١٨٧٣ مات رفاة الطهطاوى بعد رحلة حياة طويلة ، كانت كالشجرة المثمرة الطيبة ، أصلها ثابت ، وفروعها تمتد على سماء الوطن العظيم .

الشاعر المتنقل

٣



- عشرة جنيهاً مرتب جمال الدين الأفغاني
- الأفغاني يهاجم فولتير وروسو !
- التاريخ القديم لكلمة الغزو الثقافي !

- ٩ -

فى أحد أيام مارس عام ١٨٧١ ، بعد أن أفتتحت قناة السويس
بعامين ، وانحسرت أو كادت الموجة الذهبية لآيام اسماعيل ، هذ
الموجة التى لمعت على وجهها لآلى الزبد ، وحفلت أيامها بالافراح
والليالى الملاح ، حتى بلغت مداها ، فانحسرت لتخلف وراءها أموا:
الدين الفادح والهم الثقيل ، ولتاخذ معها اسماعيل الى منفاه الطويل
المريـر .

فى احد هذه الايام . . نزل الى مصر شاب فى الثانية والثلاثين
من عمره ، متوسط الطول ، قمحى اللون ، كثير التدخين فى عصبه
ظاهرة ، لايحمل حقائب أو متاعا . . لأن ملابسه كلها على جسمه
وكتبه كلها فى صدره .

كان هذا الرجل . . قد ولد فى أقصى بلاد العجم ، فى بلاد
الافغان ، لاسرة عالية النسب والمكانة ، أما علو نسبها . . فلانها تنسب
الى الحسين بن على ، وأما علو المكانة فلانها كانت تحكم أحد أقال
البلاد ، وتشارك فى مؤامرات السياسة العليا ، فيكون الامر عند
كما يحدث لمثيلاتها من الاسر ، يوم لها ويوم عليها ، وفى أحد الايـ
- التى دارت فيها الدائرة على الاسرة - تضطر الاسرة لهجرة موطن
الى العاصمة ، وهناك يشارك ابنها النابغة فى ادارة الامور حتى يصب
وزيرا لاحد الأمراء ، ويسقط ذلك الامير ، فيهجر الشاب البلاد ا
الهند ، وهناك يوطن له مكانة بين علمائها ومفكرها ، ثم لا يلب
أن يضيق ذرعا بالنفوذ الانجليزى هناك ، فيفكر فى مهجر جديد
فلا يخطر بباله الا مصر . .

كانت مصر عندئذ .. هي مهوى قلب العالم العربى الاسلامى، منذ أن دفع بها محمد على الى مصاولة الخلافة العثمانية فى حروب الشام والاناضول . فقرعت الايدى المصرية أبواب استنبول، وكادت أن تلج ساحاتها ، لولا أن تدخلت أوروبا فرعا من القوة المصرية الناشئة .. فأجبرت محمد على على الرضا بالقليل ، والقناعة بأن تكون ولاية مصر له ولذريته من بعده ..

وكانت سنوات الانحسار المريعة فى ختام أيام محمد على ، الذى أبى القدر الا أن يفارق حياته وقد فارقه عقله . فكأنه كان ينقذه من أن يجيل النظر فى مصيره المؤلم ، اذ يقارن بين سلطانه الذى كان ممدودا «ذات يوم» على مصر والسودان والحجاز ونجد والشام ، وبين هذا الملك الضيق الذى قنع به .

ولكن هناك جذوة لم تتمد بعد أن خمدت جذوة الحروب ، تلك هي جذوة التطلع العقلى والحضارى الذى مهد له محمد على السبيل والذى حمل شعلته المضيئة عديد من المصريين ، كان رائدهم هو رفاعة الطهطاوى . ومن الحق .. أن حكم عباس الاول وسعيد كان حكما يقوم على القاعدة المخادعة التى يتبناها بعض الولاة ، وهى أن الشعب الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم ، ومن الحق أيضا أن الروح العربية المصرية - التى كانت تجد سبيلها فى رفق أيام محمد على ، وكان ابنه ابراهيم كثيرا ما يتكىء عليها ويستثيرها وبخاصة فى أيام حروبه مع العثمانيين - هذه الروح كانت تلقى ألوانا من العنت والاضطهاد فى أيام عباس وسعيد ، وبخاصة فى أيام أولهما ، حتى ان من كان يتكلم باللغة العربية من طلبة المدارس الحربية - فى أيام عباس الاول - كانت توضع فى فمه البعلة التى توضع فى فم الحمار حينما يشرع حلاق الحمير فى قص شعره ، ويبقى كذلك نهارا كاملا عقوبة له .

ولكن عهد عباس وسعيد تقضت غير مأسوف عليها ، وجاءت الايام الحافلة لاسماعيل ، أيام العظمة الرائعة والهوان العظيم ، أيام المجد المتألق والانكسار المرير . فقد كان شعار اسماعيل هو : أريد أن أجعل مصر قطعة من أوروبا . وفي سبيل هذا الشعار نقل أوروبا الى مصر ، ولكنه لم ينقل مصر الى أوروبا ، وأتت أوروبا بمغامريها وسفالتها وأوغادها ودائنيها . . حتى تم لأوروبا احتلال مصر في عهد توفيق المتخبط في شباك الاضطراب الذي خلفه أبوه .

ولكن اسماعيل كان مثل جده . . يريد ملكا عصريا ، وهذا الملك العصري لا يتوطد الا بالتعليم ، وهكذا ازدهر التعليم مرة ثانية في هذا العهد ، وقد يكون محمد على واسماعيل لم يفكرا في أن انتشار التعليم سلاح ذو حدين ، فهو كما يوفر للحاكم فئة من الموظفين العموميين وكتبة الدواوين ومهندسي المصانع . . الا أنه يثير في الناس جذوة المعرفة التي لا تخمد ، والتي تدفعهم الى الفكر والمقارنة ، والتأمل في الماضي ، والنظر الى المستقبل . . لقد أوفد محمد على رفاعة الطهطاوى الى فرنسا ليؤم البعثة . ثم ليدرس العلوم العسكرية . فعاد وهو يتحدث في الدستور وحقوق المحكومين على الحكام ، ودخل «البارودى» المدرسة العسكرية في أيام عباس ، فخرج منها شاعرا ثائرا بالعربية التي كانوا يمنعون الحديث بها ، وسافر «على مبارك» ليدرس الهندسة العسكرية ، وعاد لينشئ عديدا من المدارس ، وليكون أديبا وشاعرا ومشتغلا بالعلوم الانسانية . ان التفتح العقلى لا يحده حد ، ولا يوقفه الا حدود العقل ذاته ، فاذا ظن الحكام الاغبياء . . انهم يستطيعون بالتعليم ، أن يخرجوا أجيالا من البيروقراطيين والتكنوقراطيين فحسب ، دون أن يشتغل هؤلاء الخريجون بهذا الولع المحرق بالمثل العليا ، والمصالح الوطنية ، فهم واهمون غافلون . فان الحاكم ، اذا أشبع الفضول العقلى بالتعليم ، فقد أيقظ الفضول الروحى الى الحرية .

الافغانى

.. ومصر

ولنعد الى الرجل القادم .. لنعرف كيف كانت مصر حينما قدمها ، ولنقل أولا ان الرجل لم يأت الى مصر الا لانها كانت كعبة الثوار والمتمردين من أبناء العرب والاسلام .. فقد نزلها من قبله « أحمد فارس الشدياق » ثائرا على التعصب الدينى . وأديب اسحاق ثائرا على الاستعمار والجهل ، ونزلها من بعده « الكواكبي » حزبا من بطش ولاية العثمانيين ، وبحثا عن مناخ صالح لأفكاره وآرائه .

وهكذا .. جاء جمال الدين الأفغانى الى مصر ، وهو يعرف قصده . ويدرك أنه سيلقى فى هذه البلاد عقولا متفتحة تتجاوب مع عقله المتفتح ، ونفوسا متطلعة تستجيب لنفسه المتطلعة ، ولذلك .. فنحن لا نتفق كثيرا مع قول الشيخ « محمد عبده » ان جمال الدين الأفغانى هو الذى بث بذور الروح الوطنية فى مصر، وهو الذى أيقظ الرغبة فى الدستور ، فذلك لون من التقدير باعثة الولاء الكبير من التلميذ لاستاذه ، ومن المريد لشيخه .

فحين جاء الافغانى الى مصر .. حاولت السلطة استمالة اليها ، اذ فرض له « رياض باشا » مرتبا قدره عشرة جنيهات ، وهو مبلغ كبير فى ذلك الزمان ، فكانها كانت محاولة من - رئيس النظارة - لشراء لسان لاجيء سياسى معروف بجدة اللسان على الظلم والظالمين ، ولكن هذا اللاجئ السياسى .. كان يعرف أن لسانه هو عدته وسلاحه ، وان مكانه ليس هو أروقة الحكام ودهالين السلاطين ، بل الهواء الطلق حيث تنطلق الكلمات كالرصا ص .

اتخذ اللاجئ السياسى له مجلسين : أحدهما فى بيته حيث يلتقى بضعة دروس فى الفلسفة ، وثانيهما فى قبوة متاتيا حيث

يلقى بضعة دروس في الثورة ، والتفت حوله في المجلسين الطليعة الفكرية المثقفة في مصر .

كان من بين هذه الطليعة .. هذه الأسماء اللامعة في تاريخ مصر : محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبراهيم المويلحي ، ومحمود سامي البارودي ، ويعقوب صنوع ، وأديب اسحق ، وسليم نقاش ، وكان لكل من هؤلاء مجلسه الذي يجتمع فيه خلصاؤه ، وأحباؤه من المثقفين ، فالرواة يحدثونا أن مجلس البارودي كان يجتمع فيه عبد الله النديم وعبد الله فكرى والشاعران علي أبو النصر ومحمود صفوت الساعاتي وغيرهم ، كما يحدثنا الدكتور أحمد أمين - نقلا عن عبد العزيز فهمي - أنه كان يتردد على مجلس علي باشا مبارك ، فيجد فيه لقيفا من المثقفين من شباب مصر . وقد ظل مجلس علي باشا مبارك عامرا ، حتى حضره الزعيم مصطفى كامل وهو طالب شاب ، فلم يضق به رب المجلس ، بل قربه واستدناه اليه .

وقد جاء جمال الدين الافغانى الى مصر وهو يحمل بضعة أفكار ، وغادرها وقد أضاف الى فكره أفكارا جديدة .. وانضحت في نفسه أفكاره الأولى فأصبحت أكثر عمقا ورسوخا وثراء . وكان ذلك كله ثمرة للقائه مع المفكرين المصريين أولا ، ومع الواقع المصرى خلال الأعوام الثمانية التى عاشها في مصر بعد ذلك .

لقد أعطى الافغانى مصر ، وأعطته مصر .

كان الافغانى حينما جاء الى مصر ، لم يحرر أو يكتب الا رسالة الرد على الدهريين ، وقد كتبها بالفارسية وهو ببلاد الهند . وترجمها الشيخ « محمد عبده » فيما بعد الى العربية بمعونة أحد الفرس المقيمين بمصر ، والدهريون الذين رد عليهم الافغانى هم أولئك الشبان المسلمون الهنود .. الذين قرأوا شيئا من العلم الحديث ، فوجدوا فيه نظريات النشوء والارتقاء على اختلاف نتائجها ، وبخاصة نظرية « داروين » الذى كتب كتابه « أصل

الأنواع » في عام ١٨٥٩ ، فـهـز به وجدان المتدينين في كل مكان .
وبسأل سائل . . جمال الدين الافغانى عن رايه في مذهب
الطبيعيين هذا ، هل هو موافق للدين أو مخالف له . . وتصدى
جمال الدين للرد في رسالة طويلة ، استعرض فيها تاريخ الامم
وتاريخ الفكر ، مبينا أن الامم المتعاقبة « كالافريق والفرس
والمسلمين والفرنسيين والعثمانيين » ظلت على سواء السبيل حتى
استشرى فيها تيار الطبيعيين أو الدهريين ، ففسدت أمورها
واضمحل شأنها .

ولتقرأ له يحكى جزءا من تاريخ العالم والفكر من وجهة نظره
المصطبغة بالحماسة الدينية المتأججة ، فيقول بعنوان « الشعب
الفرنساوى » :

« شعب قد تفرد بين الشعوب الاوروبية باحراز النصيب
الاول من اصول الستة الاخلاقية ، فرفع منار العلم وجبر كسر
الصناعة في قطعة أوروبا . . حتى ظهر فيهم وولتر «فولتير» وروسو
يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم ، والقيام بانارة الافكار وهداية
العقول ، فنبشوا قبر ابيقور الكلبى واحياها بل من عظام الناتور السم
« الدهريين » ونبشوا كل تكليف دينى ، وغرسوا بلور الاباحة
والاشتراك ، وزعموا أن الآداب الالهية جعليات خرافية ، كما زعموا أن
الاديان مخترعات أحدثها نقص العقل الانسانى . . فأخذت هذه
الاضاليل من نفوس الفرنسيين ونالت من عقولهم ، فنبلوا الديانة
اليعسوية . . والاضاليل التى بثها هذان الدهريان «وولتر وروسو»
هى التى أضرمت نار الثورة الفرنسية المسعورة ، ثم مزقت بعد
ذلك أهواء الأمة ، وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها . . نعم ان
«نابليون الاول» بذل جهده في إعادة الديانة المسيحية الى ذلك الشعب
استدراكا لشانه ، لكنه لم يستطع محو آثار تلك الاضاليل . .
فاستمر الخلاف بالفرنساويين الى الحد الذى هم عليه اليوم . .

هذه الأباطيل الدهرية قام عليها مذهب الكمون « الكميونزم » أى الاشتراكيين ، ونما هذا المذهب بين الفرنسيين ولو لم يتدارك الأمر أرباب العقائد النافعة والسنجايا الحسنة لنسف الاشتراكيون كل عمران على أديم فرنسا ، ومحووا مجد الأمة تنفيذا لأهوائهم وجلبا لرغائبهم !

هذا هو موقف جمال الدين من عصره حتى عام ١٨٧٠ ، وهو عام كتابته لرسالته ، وهذا هو تقديره للتيار الليبرالى فى الفكر والفلسفة ، وهذا هو موقفه من العلم والاشتراكية . وهو موقف سلفى شديد المحافظة . ولعل له فى ذلك بعض الحق . . . فنحن تعلم ان الغرب لم يؤثر فى الشرق بعلمه وحضارته فحسب، بل باستعمارهم واقتصاده المتقدم ، وكثيرا ما اختلط الوجهان فى نظر أبناء الشرق . فأنكروا الغرب جملة . وكل ما يأتى منه . ونحن مازلنا نسمع حتى الآن كلمة « الغزو الثقافى » يرفعها بعض الناس علما مرفقا يجندون تحته أعوانهم ، رغم أن الكلمتين « غزو » و « ثقافة » لا يمكن أن تتألفا بحال من الاحوال ، ورغم ان الثقافة الاوروبية ليست مسئلة عن الاستعمار ، بل لعلها كانت من عوامل تفتيح الوعي على وجوب محاربة الاستعمار والتخلص منه .

وقد انعكس هذا الموقف انعكاسا واضحا على جمال الدين فى مرحلة فكره الأولى ، فلم يجد خلاص الشرق ، المسلم ، الا فى العودة الى حظيرة الخلافة العثمانية ، اذا اختصر النزاع بين أوروبا والشرق فى رأيه فى خلافهما الدينى ، أو فى الدرع الدينى الذى لبسه كل منهما ليواجه به صاحبه . واختصرت المسألة الشرقية ، فى العراك بين الغربى والشرقى ، وقد لبس كل منهما لصاحبه درعا من الدين .

فالغربى تذرع بالنصرانية . والشرقى بالاسلامية ، وأهل الديانتين كالآلة الصماء بأيدي محركيهما ، فالقائمون بالنصرانية

يسخرون الدين لاجل الدنيا ، والعالمون بالاسلامية يسخرون الدنيا لاجل الدين ، فيخسرون الدين والدنيا معا . . !

ولكن الخلافة الاسلامية . . التى كان الافغانى يدعو الى الانضمام تحت لوائها ، والتفانى فى خدمتها ، والموت فى سبيلها . . كانت للأسف هى خلافة بنى عثمان فى عهدها الاخيرة المحتضرة . التى تحكم بغير ما أنزل الله ، وتضطهد العرب والعربية ، وتستخلى تحت الضغط الأوروبى . وقد كان الافغانى كثيرا ما يجادل نفسه فى شأن هذه الخلافة . . فىرى سوءاتها ، ويلمس تخبطها ، ولكنه يظل يراها الملجأ الأخير من هذه الجيوش الأوروبية الزاحفة نحو العالم الاسلامى مشرقه ومغرب ، تقص من أجنحته ، وتستلب من أرضه ، فهو يتول عن السلطان عبد الحميد ، بعد ذلك بزمان :

« أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره ، واعداده العدة اللازمة لابطال مكائد أوروبا ، فقد دفعنى الى مد يدي اليه ، فبايعته بالخلافة والملك لما أعلم ، علم اليقين ، ان الممالك الاسلامية لا تسلم من شركاء أوروبا ، ولا من السعى وراء اضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى الا بيقظة وانتباه عمومى ، وانصواء تحت راية الخليفة الأعظم » . .

ولكنه يرى أيضا . . هذا الاضطهاد الذى يصبه الاتراك على العرب . وقد كان جمال الدين عربى الهوى واللسان ، رغم أصله الافغانى . فيتمنى على الزمان لو استعرب الاتراك كما استعرب أهل مصر ، ولو انصفوا فى سيرتهم كما انصف بعض خلفاء بنى العباس . « لو انصف الاتراك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم واستعربوا ، ورأسوا ذلك الملك ، وعدلوا فى أهله وجروا على سنن الرشيد أو المأمون على الأقل . . ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين لما كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة وأعز جانبا وأمنع حوزة »

لكن الأفغانى - رغم ذلك - لا يرى الا الوحدة الدينية طريقا
للنجاة من الغزو الأوروبى ، فيدعو اليها مع أخذ الاهبة والاستعداد
العسكريين ، ولكنه لا يرى بعض القضايا الملحة كقضية الدستور
وقضية العروبة كبديل للخلافة العثمانية ، وقضية تنقية الفكر
السلفى وتطويره . . . حتى يصل الى مصر .

هل كان لقاءه بمصر لقاء باحداثها وأزماتها ، أم لقاء بأهل
الرأى فيها ؟

موجز الرأى . . انه كان لقاء بالتيارين معا ، تيار الأحداث
وتيار الرجال ، وان هذا اللقاء هو الذى جلا الوجه المستنير للشيخ
جمال الدين الأفغانى .

- ٢ -

لا تنمو البذرة الا فى الارض الصالحة ، ولا تورق الكلمة
وتصبح فعلا الا اذا كانت الاسماع متأهبة لاستقبالها ، وكانت
الأيدي متأهبة لاعطائها سلطانها وفاعليتها ، وهكذا تحولت كلمات
الأفغانى فى مصر الى أفعال لا الى أصداء . وقد أشرنا فى المقال
السابق الى أن « الشيخ محمد عبده » قد وصف مصر قبل نزول
الأفغانى ، فجاء على الواقع لينصف الشيخ العظيم . اذ أعلن أن
مصر ، قبل مجيئه ، كانت قد خلت من كل صاحب فكر أو تدبير ،
حتى جاء الشيخ فأنشأ ذلك كله انشاء .

يقول محمد عبده :

« ان أهالى مصر قبل عام ١٢٩٣ هجرية . . كانوا يرون
شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنبيه عنه
فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون ان
سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله ، أو خيانتته وظلمه ،

ولا يرى احد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه في ادارة بلاده ، او ارادة يتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لامته . ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم ، وكانوا على غاية البعد عن معرفة ما عليه الامم الأخرى . . سواء أكانت اسلامية ام أوروبية - ومع كثرة من ذهب منهم الى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد على الكبير الى ذلك التاريخ وذهب العدد الكثير منهم الى ما جاورهم من البلاد الاسلامية أيام محمد على باشا الكبير وابراهيم باشا ، لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الاسفار ، ولا فوائد تلك المعارف مع أن اسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر عام ١٢٨٣ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنا في مصالح بلادهم ، وأن لهم رأيا يرجع اليه فيها . .

هذا تشخيص محمد عبده لحال مصر قبل نزول جمال الدين بها . . وهو رأى لابد أن نحكم بصوابه لو كان الأمر متعلقا بسواد هذا الشعب ، فحين تستحكم الأمية ، ويمد الفقر سلطانه فلن تجد رأيا أو نظرا أو تفكيرا في مصالح الأمة ، وقد ابتليت مصر بالامية والفقر منذ زمن بعيد . والفقراء والأميون لا يتحركون للإصلاح الا اذا حركتهم ثورة شعبية شاملة ، كما حدث في عام ١٨٨٢ حين قامت الثورة العربية ، أو في عام ١٩١٩ حين قامت الثورة الشعبية الواسعة . أما من ناحية النظر والتدبر والتفكر في شئون الأمة . . فيستوى الأمر قبل وصول جمال الدين أو بعد وصوله واقامته . اذا كنا ننظر الى الأمر من زاوية ارتباطها بسواد الشعب الأمي .

ان الاسم التي تمر بالمرحلة التي كانت تمر بها مصر في ذلك الزمان ، لا بد أن تعتمد في نظرها وتفكيرها على طلائع ما نسميه بالطبقة المتوسطة ، التي تستطيع أن تحل طلائع القراءة والكتابة ، وأن تملأ بطنها بالخبز والادام ، فهي عندئذ تستطيع أن تتطلع الى

ملء عقلها بالمعرفة ، وتستيقظ عندئذ فيها نزعات الحرية وإدراك المصلحة العامة .

وقد كانت الطبقة المتوسطة المصرية ، قد بدأت في ارتفاعها وامتدادها قبل وصول الأفغانى إلى مصر ، فقد جند محمد على المصريين حين فشل في تجنيد المرتزقة الأتراك والمماليك ثم السودانيين ، وحاول أن يسترضى المصريين ، وبخاصة في أيام خلافه مع السلطان العثمانى وحروبه في الشام والأناضول ، ونجد في مخطوطات عابدين ٠٠ نقلا عن الكتاب القيم « لغة الإدارة في مصر للاستاذ عبد السميع الهراوى » أن « محمد على » أصدر أمرا إلى محافظ دمياط بالتركية هذه ترجمته :

« انه علم بالاحتفالات التى قوبل بها (آلاى حسين بك) من الأهالى والقبائل ، وبما تفوه به (على أغا) ناظر السلخانة . وقوله في محفل الاستقبال - صار الفلاحون العمى عساكر ، ومهما كانوا لا يكونون مثل عساكرنا الترك - وعليه فاضربوه مائة نبوت على ايته . وينفى وان عاد يصلب ٠٠ »

ولكن (محمد على) لم يسمح للمصريين بأعلى من رتبة العسكر الا في بعض الحالات القليلة ، فلما جاء « سعيد » سمح للمصريين بالترقية الى وظائف الضباط ، وكان هؤلاء الضباط هم الذين أسهموا في تكوين الحزب الوطنى الأول ، وهم الذين قادوا الثورة العربية فيما بعد .

وبجانب هذه الفئة كانت هناك فئة المتعلمين الذين تعلموا في مدارس محمد على أو في بعثاته . ومن الحق . . ان محمد على - وهو الرجل البالغ الذكاء والدهاء - كان يتوجس خيفة من التعليم . اذ كان يريد مجرد وسيلة لتخريج الموظفين ، ونحن نراه يوضح سياسته التعليمية في خطاب يرسله في عام ١٨٣٦ الى

ولده ابراهيم ، يندد فيه بالتعليم العام .. ويرى فيه ان أوروبا قد تورطت في تعليم كافة الناس حتى يقول :

« فاذا كان هذا المثال أمام الانظار ، فمن الواجب أن تتفضلوا فتكتفوا بتعليم القراءة والكتابة لعدد منهم واف بأعمال الرياسة ، غير مولعين بتعميم ذلك التعليم » .

وقد انتكس التعليم في أيام عباس الاول وسعيد ، حتى أوشك سعيد ان يجعل الجهل شعارا لحكمه .. اذ أغلق المدارس ، ومنع المطبعة الأميرية ببولاق هدية الى أحد خاصته ، واسمه «عبدالرحمن رشدى بك» ليستعين بها على زيادة دخله وتوفير معاشه ، وفي هذه الاثناء كان أولئك الذين تعلموا ، في أيام محمد على ، يقتربون من شيخوختهم المثمرة ، يتقدمهم شيخهم العظيم رفاعة رافع الطهطاوى ، حتى يعود التعليم لازدهاره في أيام اسماعيل ، التى كانت قد مضت منها ثمانى سنوات يوم نزل جمال الدين الافغانى مصر .

ونحن نجد الأسماء المصرية اللامعة ، تقود هذه النهضة التى أرادها اسماعيل ، فان لفيغا من المصريين يترجمون قانون نابليون ليكون هو القانون المدنى .. ويكون رأسهم هو رفاعة الطهطاوى ، بل ان واحدا من أبناء مصر هو الذى يتولى نظارة التعليم فى أيام اسماعيل ، وهو الذى ينشئ دار العلوم والكتبخانة الخديوية ، ذلك الرجل هو .. على باشا مبارك .

قد كان من اصلاحات اسماعيل .. أن انشأ مناصب « العمدة » فى القرى ، واختار العمدة من كل قرية من أهل اليسار فيها .. واستطاع هؤلاء العمدة والأعيان الجدد - بدكاثهم ودأبهم - أن يتقربوا من مراكز السلطة ، وأن يحصلوا فى بعض الاحيان على الرتب التى تميزهم عن غيرهم كرتب البكوية والباشوية ، وهم الذين اختارت الحكومة نفرا كبيرا منهم لكى يكونوا أعضاء فى أول

مجلس نيابى حديث عرفته مصر ، وهو مجلس « شورى النواب »
الذى انشأه اسماعيل فى عام ١٨٦٦ .

هذه الروافد الثلاثة ٠٠ الجيش المصرى ، ثم الموظفون ، ثم
العمد والاعيان ، هى التى كونت الطبقة الوسطى المصرية التى كان
وجودها فى أيام اسماعيل حقيقة واقعة ، والتى قادت الثورة العرابية
فيما بعد ، بل ان أبناءهم هم الذين تولوا قيادة سفينة مصر حتى
عام ١٩٥٢ ، فان سعد زغلول ومحمد محمود ولطفى السيد ومحمد
حسين هيكل مثلاً ٠٠ هم من أبناء أعيان القرى ، بينما كان مصطفى
كامل ابنا لعلى أفندى محمد من احدى قرى طنطا ، الذى أصبح
ضابطاً وموظفاً بالحكومة ، وكان أخوه ، الذى رعاه وقام له مقام
الأب ، مهندساً أصبح وزيراً للاشغال .

حديث هذه الطبقة

هذه الطبقة الجديدة ٠٠ لابد أنه كان لها حديث وأسمار حين
تلتقى ، وحين تكتب فى «الوقائع المصرية» أو «روضة المدارس» أو
جريدة «مصر» أو «جريدة التجارة» ، ولا بد أنه كان لها حديث
وأسمار حين تشهد بدايات الزحف الاوربى على مصر ، واتساع مدى
ديون اسماعيل ، وحين تراه يشق الشوارع ويشيد المسارح
والقصور والحدائق تشبها بأوروبا ، واستعدادا لاستقبال ضيوفه
حين يفتتح قناة السويس ، بل وحين تراه يسمى سعيًا حثيثاً الى
فصل مصر تدريجاً عن الدولة العلية ، وحين تراه يحاول أن يجعل
لهذه البلاد مجلساً نيابياً ، وأن يوسع من سلطات مجلس النظار
ومكانته ليستكمل ملامح الملك العصرى .

ولا تظن أن الطوائف الثلاث من أبناء هذه الطبقة كانت
ساكنة ٠٠ فنحن نرى عرابى يحدثنا أن سعيد أهداه كتاباً عن
نابليون ، فلما قرأه دفعه الى التفكير فى الإصلاح ، وأنه كان يتالم

لسيطرة الشركس والأتراك على الجيش منذ وعى أوضاع البلاد . ونحن نرى رفاة الطهطاوى يحدثنا فى كتابه «مناهج الالباب» عن أنظمة الحكم ومشكلات الاقتصاد ، ونحن نعرف ان أعيان المصريين الخالص كانوا يأبون الا أن يزاحموا فلول الأتراك والشركس فى سياسة الدولة ، حتى يظفر منهم الكثيرون بمناصب الوزراء .

ولابد ان هؤلاء جميعا .. قد التقوا بالافغانى كما التقى بهم ، لا بد انه قد أفاد منهم كما أفادوا منه ، ولكن الفائدة الكبرى التى أفادها فكر الافغانى .. كانت ، بلا شك ، هى معاشته لحياة مصر فى هذه السنوات التى عاشها فيها بين عامى ١٨٧١ و ١٨٧٩ اذ يشهد انهيار حكم اسماعيل تحت وطأة طموحه غير المحسوب ، هذا الانهيار الذى تمثل فى انشاء صندوق الدين واحكام السيطرة على مقدرات مصر ، ثم فى عزل اسماعيل وطرده من مصر .

لقد نبهته هذه الأحداث .. الى ان القضية ليست قضية دين فحسب ، بل هى قضية أسلوب حكم فردى لابد أن يقود الى الكارثة ، وقضية تخلف اقتصادى يجعل الشرق يقف عاجزا مهيبض الجناح أمام الغرب ، أو هى بالاحرى قضية حضارة ..

وربما كان الافغانى لم يعبر عن قضية الحضارة هذه بشكل مباشر وموجز . ولكنه بلا شك عبر عن تفاصيلها ، فبينما نراه فى كتابه الاول «الرد على الدهريين» معنيا بمهاجمة الالحاد والذود عن حياض الشريعة .. نراه فيما بعد فى كتاباته بالعروة الوثقى - بعد نفيه من مصر - مهتما بالمشكلات المعاصرة ، مثل السيطرة الاستعمارية والاستعانة بالاجانب فى أمور الحكم ، واتخاذ شكل الحكم النيابى وفوائد الصناعة وتحرير المرأة ، بل انه يتحدث عن الاشتراكية مقارنا بين اشتراكية الغرب التى تقوم على الضئيفة والحق - فى رأيه - واشتراكية الاسلام ، ثم ينتهى الى القول :

« ودعوى الاشتراكية ، وان قل نصرأؤها اليوم ، فلا بد أن تسود العالم ، يوم يعم فيه العلم الصحيح ويعرف الانسان أنه وأخاه من طين واحد أو نسمة واحدة ، وأن التفاضل انما يكون بالانفع من المسعى للمجموع ، وليس بتاج أو نتاج ، أو مال يدخره أو كثرة خلم يستعبد بها أو جيوش يحشد بها أو غير ذلك من عمل باطل ومجد ذائل » .

القضايا الثلاث

كان جمال الدين طوال حياته داعياً الى الثورة الاسلامية الشاملة ، التي تبدأ باتحاد بلاد الاسلام من ترك وفرنس وأفغان وعرب ، لكي يقفوا في وجه الاستعمار الاوروبي الزاحف ومن الحق أنه عبر أكثر من مرة عن محبته للعرب، وتقديمه لهم على غيرهم من شعوب الاسلام . . ولكنه كان ، في الوقت ذاته ، يرى ان مكانهم يجب أن يكون في ظل الخلافة الاسلامية العثمانية . ولا نظن ان الافغانى أو أحدا من معاصريه ، كان يستطيع أن يرى لأى مسلم انتماء يتعد به عن مجال السيطرة التركية ، فقد كانت دعوة القومية العربية لم تتبلور بعد ، بينما كانت الدعوة التي بدأت تشق طريقها هى الصيحة التي أعلنها الحزب الوطنى الاول « مصر للمصريين » وكانت تعنى عندئذ . . التخلص من رئاسة الانثراك والشراكسة المحليين ، وتعبير عن طموح الطبقة الوسطى المصرية الناشئة الى احتلال مناصب الدولة العليا .

وسبظل تاريخ الوجدان المصرى الى خمسين سنة أو يزيد بعد مغادرة الافغانى لمصر فى عام ١٨٧٩ مشغولا بهذه الالوان الثلاثة من الانتماءات . . الانتماء للجامعة الاسلامية ، أو الانتماء العربى أو الانتماء الى مصر ، حتى يدرك هذا الضمير أن هذه الانتماءات الثلاثة لا يعارض بعضها بعضا ، وانما يتم كل منها الآخر بشكل من الاشكال .

كما سيظل الضمير المصرى موزعا بين أتجهاين نبتا فى تلك
الايام، واختلف حولهما المستنيرون من أبناء مصر.. هل يكون التغيير
بالثورة أم يكون التغيير بالإصلاح . أما الدين يرون التغيير بالثورة
فسيكونون هم ضباط الجيش المصرى وقادته ، وسيكون لسانهم
الناطق هو عبد الله النديم ، أما الذين يرون التغيير بالإصلاح
فسيجدون فى التعليم قصارى أمانهم ، ويحلمون بأمة قارئة كاتبة،
وسيكون منهم على مبارك الذى يبتعد عن الثورة العربية فى أوج
التأهب لها ، حتى اذا شبت واشتعل أوارها .. عاد الى قريته فى
« برمبال » ليصلح أرضه وبتعهدها ، فاذا استتبّت الأمور ..
رجع الى سدة الوزارة مسانفا مشروعاته التعليمية . وسيكون
منهم محمد عبده الذى يميل الى الثورة بعض الميل ، حتى اذا
فشلت لام النفس على تورطه فيها ، وفى باريس يلتقى بشيخه
جمال الدين الافغانى ، فيصدران معا جريدة « العروة الوثقى »
وتتوالى اعدادها ثمانية عشر عددا فى ثمانية أشهر ، ثم لا تلبث أن
تمنع من شتى البلاد الاسلامية ، فيعود محمد عبده الى طبيعته
كمعلم ، ويقول لشيخه جمال الدين :

« ارى ان نذهب الى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة من
السلول المعادية ، وننشئ مدرسة نختار لها التلاميذ من نجباء
الناشئين فى الاقطار الاسلامية ، ونربيههم على منهج قويم نختاره ..
فلا تمضى عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين
يتبعوننا فى ترك اوطانهم والسير فى الارض لنشر الإصلاح المطلوب
فينتشر أحسن انتشار » .

ولا يعجب الثورى « جمال الدين » بحديث المعلم « محمد
عبده » فيقول له :

« انما انت مشيط ! »

لقد اتضحت في شخصية الرجلين علامات اختبار آخر
سيخوضه الضمير المصرى بين التغيير بالثورة والتغيير بالاصلاح ،
وسيرتفع لواء الشعار الثانى بعد فشل الثورة العرابية التى تستحق
وقفة متأنية على مشارف تفكيرها ..

◆ ◆ ◆

ما قبل الشلاشاء الحزبين .. وبعده

٤



• أوروبا . . خيرا أم شر ؟
• هدية الأعيان الى قائد الاحتلال
• هل تراجع عرابي عن أفكار الثورة ؟

في صباح الثلاثاء الحزين ، الحادى عشر من يوليو عام ١٨٨٢ ، انطلقت القذائف من البحر تتساقط على قلاع الاسكندرية ومبانيها ، حتى دكتها دكا ، ثم هبط الجنود الانجليز الى المدينة المحترقة ، التى هرب منها معظم أهلها ، مندفعين دون وعى يهربون من خطر الحريق والموت الى الأم التشرذ والضياع ، يصف الشيخ محمد عبده هؤلاء المهاجرين قائلا :

« نحو مائة وخمسين ألفا من السكان ، مجردين من كل شيء ، أخلوا في الحركة لغير قصد ولا ملاوى • الموت والفزع ملء نفوسهم ، على شطوط المحمودية الى دمنهور ، وجسر السكة الحديدية من دمنهور الى القاهرة ، كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رفيعة ، متحركة في كل جبهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة • هنا ينزلون وهناك يمشون ببطء •• ولا وقاية ولا عيش ، على طرفي تضاد مع سماء صافية وأرض نضرة •

كانوا كالأعاصير ، أو كماء انكسر سده فاندلق يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين في حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين أمامهم أو حاملين على ظهورهم ما خف حملهم من أمتعتهم •• حيوان • أثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التى لا قيمة لها • فى هذه الحالة - حالة شعب طرد من بيته - كان الحر شديدا ، وغيم من الغبار سد الأفق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجرن بعضهن مع بعض ، يتضاربن •• عربات بلا عجل استعملت مساكن •• عربات من كل نوع ، بعضها ساقط فى المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بخيل ، بعضها بغير خيل - روائح شئ اللحم •• صياح على المارة « الخبز ! الخبز ! »

هذه اللوحة التراجيدية الحزينة ، التى تسجل يوما ثقيلا من أيام عذاب مصر ، ثم ما تلاها بعد ذلك من فواجع النفس ، اذ انهارت الثورة ٠٠ وانهار معها قوادها يطلبون عدالة الانجليز وعطفهم ويسلمونهم سيوفهم بدلا من أن يموتوا شهداء - بل ويذهب بهم الهلع الى التبرؤ من صحيفة مفاخرهم ، وانكار أعمالهم وأقوالهم ، والقاء اللوم على بعضهم البعض ، ثم ما تلا ذلك كله من انهيار البناء المصرى حكومته ، وجيشه ، ومجلسه النيابى ، وتسلسل الاحتلال على مقدرات البلاد ، كل ذلك لم يغب عن الوجدان المصرى لحظة فيما تلا ذلك من أحداث وما صاحب تلك الأحداث من تفكير وتدبير وتأمل .

نابليون . فريزر . بوشان سيمور . ثلاثة من رجال الغرب يأتون الى مصر فى مدى أقل من قرن من الزمان ، تتقدمهم شعل النيران وقذائف اللهب ٠٠ ترى ماذا تريد بنا أوروبا ، لقد تنبهنا الى أنهم يعرفون مالا نعرف ، فحاولنا أن نلم بمعارفهم ، نكتسب خبراتهم ، وتنبهنا الى أنهم لا يعيشون كما نعيش ، فحاولنا أن نقرّب أسلوب حياتنا من أسلوب حياتهم ٠٠ اننا نقلدهم ونتعلم منهم ، بل اننا نريد أن نحكم بلادنا كما يحكمون بلادهم ، فنقر فيها حكومة مسئولة ، ودستورا ينظم العلاقات بين الحاكم والمحكوم ٠٠ اننا نريد أن نتقدم على طريقتهم ، وقد نلتقى ببعض أهل أوروبا حين يقدمون الى بلادنا حاملين خبراتهم ، فنجد فيهم العلم والفضل والمحبة ومن منا لا يذكر سليمان الفرنساوى وكلوت بك وموجل بك وغيرهم ولكن هؤلاء الغزاة أوربيون مثلهم ٠٠ يا لحيرة الضمير ٠٠ هل أوروبا خير ؟ هل أوروبا شر ؟ وهل نستطيع أن نتبنى حضارتهم دون أن نتعرض لضياح الشخصية وفناء الذات ، بل دون أن نتعرض لقصف المدافع وصليل السيوف .

ويقول بعض القائلين : لنطو هذه الصفحة كلها ، ليتنا طويناها منذ البدء ، وظللنا على بداوتنا وجهلنا المزعوم ، فقد كان ذلك أجدى على استقلالنا وأصون لأرواحنا ٠٠ ان أوروبا ليست الا قشورا أجدى على استقلالنا وأصون لأرواحنا ٠٠
قصة الضمير المصرى - ٦٥

من العلم الزائف ، لا تنفع الا فى تيسير بعض أمور الناس ، التى يستطيعون الاستغناء عنها ، لدينا من تقاليدنا وعلم أجدادنا ما يقوم مقام هذا العلم .

ويقول آخرون : ان أوروبا ما زالت تعيش بعقلية الحروب الصليبية ، وانها لمركة اسلام ضد مسيحية غربية ، وان علم أوروبا وحضارتها ليسا الا وسائل لتمييع مقومات وجودنا حتى يسهل عليها بعد ذلك افناؤنا والقضاء على ديننا .

وتصل النغمة الى مداها حين ينادى المنادون بالعودة الى الماضى واحياء ما جرى عليه الحال فى أيام السلف الصالح ، فما الحرية والدستور والشعب والعلوم العصرية الا كلمات ومعان مستحدثة لن يكون من عواقبها الا الضياع والهزيمة .

وتتسع الرؤية عند فريق آخر ، فيفطنون الى أن مواجهة أوروبا تعنى أن يكون لنا علم كعلمهم وصناعة كصناعتهم واقتصاد كإقتصادهم ..

ولكن مواجهة أوروبا تظل على كل حال مشكلة تواجه الضمير المصرى الحديث ، وما بين الرفض الكامل والقبول المشروط تتعدد مواقف المفكرين المصريين ، ما بعد الثورة العرابية ، بل وفى أثنائها ، اذ أن الثورة العرابية وإخفاؤها كانا هما بداية التحام لمشكلات الضمير المصرى ، فقد انتهت المرحلة الأولى من اليقظة المصرية بالهزيمة والانكسار ، وتخيلت للعيون أيام الزهو العظيم تمر كالأحلام ، ثم تهوى فى هاوية الحاضر الأليم ، منها يوم وقفت فيه جيوش مصر تفرع أبواب الاستانة ، ويوم اجتمع فيه الجيش أمام قصر توفيق يطالب بدستور للأمة ، ويوم صدر فيه دستور للأمة يبعد عن أموالها رقابة الوزيرين الأجنيين ، وغير هذه الايام من مواسم المجد والعظمة ، ثم تخيلت للعيون أيام العذاب والشجن ، وتطلعت العقول بعد ذلك .. الى اعادة النظر واستخلاص العبرة .

لقد كانت مصر تواجه سؤالين ، أولهما عن الانتماء المصرى •
أهو عثماني أم عربى أم مصرى ، وثانيهما عن الإصلاح ، هل يكون
بالثورة أو بالتعليم ، وها هى ذى تواجه سؤالاً جديداً عن علاقتها
بأوروبا •

وعن هذه الأسئلة الثلاثة ، ومنها ، سيلور اجتهد التفكير
المصرى وذكاؤه ، وسوف تتعدد الاجابات ، حتى يستقر لمصر قرار •
ولقد كانت الثورة العربية فى جانبها النظرى •• أول اجابة
مطروحة على هذه الأسئلة الثلاثة ، أو هى فى الحق أول محاولة
للاجابة على هذه الأسئلة •

لقد تأخى فى الأيام الأولى للثورة العربية جناحان كبيران ،
هما جناحا الضباط والأعيان ، وكلا الجناحين قاداته مطالبه الخاصة
الى المطالب العامة • ولقد بدأت الثورة قبل انفجارها الأخير بحوالى
ثلاث سنوات ونصف ، حين أحالت وزارة نوبار الفين وخمسمائة
من ضباط الجيش المصرى الى الاستبداد فى فبراير عام ١٨٧٩
بدعوى الضائقة المالية ، فاحتشد هؤلاء الضباط وضربوا نوبار ، وحين
حاول اسماعيل خديو مصر التدخل بعد ذلك ، كاد أن يضرب •
وبعد ذلك بشهر واحد تقريباً كان مجلس النواب يقرر
الاعتصام بعد أن صدر قرار حله ، لأنه أراد أن يمارس دوراً
فعلياً فى مناقشة شئون البلاد ، أما سجل هذا المجلس منذ عام
١٨٦٦ ، حتى عام ١٨٧٩ فيكشف عن اهتمام أعضائه من الأعيان
والعمد بالمشكلة المالية ، وبخاصة اذا تعرضت لأموالهم أو للضرائب
المفرضة على الأرض الزراعية ، وقد كان النزاع الأخير بينه وبين
الحكومة حول قانون المقابلة ، وهو قانون أخذت به الحكومة ضرائب
الأرض الزراعية مقدماً لسنوات طويلة ، ثم حاولت بعد أن تأزمت
الأمر أن تلغيه وتعود الى استخلاص الضريبة مرة ثانية ، فثارت
ثائرة النواب •

ولقد كان الاعيان أسرع فى الحركة والتجمع من الضباط ، اذا اجتمعوا فى منزل أحد كبيرائهم ، وهو السيد على البكرى نقيب الاشراف ، ثم نقلوا اجتماعهم الى منزل اسماعيل باشا راغب ، وتمخضت اجتماعاتهم عن مشروع لائحة وطنية دعوا فيها الى مطلبين ، أولهما تسوية الحالة المالية ، وثانيهما اشراكهم فعليا فى حكم البلاد .

وقدم الأعيان مذكرتهم الى الخديو الذى قبلها ، وأصدر بيانه الذى يقول فيه « .. وبناء على هذا اجتمعت جمعية حافلة من حضرات أعضاء شورى النواب ، والعلماء الاعلام والذوات الفخام والمأمورين الكرام ووجه البلد وأعيان المملكة ومعتبرى الأهالى .. الخ » .

وفرح الأعيان بالنصر الذى حازوه ، وما لبثوا أن تفتتح وعيهم الوطنى على الرغبة الملحة فى المشاركة فى حكم البلاد ، وكانت الحركة الوطنية تقوى فى الجيش أثر اضطهاد « عثمان رفقى » الشركسى للضباط المصريين ، فالتقى الثياردان ، تيار الأعيان الذين كان يمثلهم محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب أيام توفيق ، وتيار الجيش الذى كان يمثل عرابى .

ولكن الفريقين المتحالفين ما لبثا أن اختلفا حين جد الجد ، أما فريق الاعيان فقد تبرأ من الثورة ، ولاذ بالخديو ، بينما تصمدى الجيش وحده لمواجهة الغزو الأوروبى .

لقد كان الفريقان متحالفين ، يوم أن كان شعار الحركة هو مصر للمصريين ، كل من الفريقين يدرك الشعار بمعنى مختلف .. الأعيان يطمعون فى وراثة فلول الأتراك فى حكم البلاد ، بحيث يتاح لهم أن يشعروا لها ، ويديروا أمورها ، ويوجهوا خطواتها ، أما المصريون فى الجيش فانهم يطمعون الى تولي الصدارة وزيادة الرواتب . وقد كان هذان الموقفان على أية حال ، اجابة على مشكلة الانتماء ، فالأتراك ليسوا أصحاب حق فى البلاد ، لعلنا نجد نبرة الاستقلال

شديدة البروز في الردود المتوالية لمجلس شورى النواب على خطب الافتتاح التي يلقيها الخديو « أو خطابات العرش » في أيام اسماعيل ، بحيث لا يرد فيها ذكر للسلطان العثماني ، وقد حسمت هذه المسألة بشكل أوضح حين تدخلت الاستانة في أيام الثورة العربية تدخلها الضار اذ أعلنت عصيان عرابي . وقد كان المظنون بالنزعة التركية العثمانية بعد ذلك أن تدبل وتنمحي لولا الاحتلال الانجليزي ، اذ أصاب المصريين بالحيرة والقنوط ، وساء ظنهم في أوروبا كلها ، وتخلوا ان لو كانت الدولة العثمانية قوية لمحاولت انقاذهم ، كما أنهم ظنوا أن قطع الانتماء الى الدولة العثمانية ينتج عنه أن يصبح الاحتلال الانجليزي شرعيا ، ومن هنا قال محمد عبده ذات مرة ان الخلافة الاسلامية هي ثالثة الشهادتين بعد الشهادة لله ورسوله ، ومن هناك أيضا حرص مصطفى كامل بعد ذلك على تأكيد الانتماء العثماني في المرحلة الأولى من جهاده .

واختلف الفريقان أيضا . . الجيش والاعيان في منهج الاصلاح أما الاعيان فقد كانوا يرون الطريق البرلماني أسلم عاقبة وأكثر جسوى ، وكانت تجربتهم البرلمانية قد نضجت بعض الشيء خلال ممارستهم للنيابة عن الأمة ، كما أنهم كانوا قد استطاعوا أن يقرروا بعض المبادئ الدستورية وبخاصة في لائحتي ١٨٧٩ و ١٨٨٢ ، لقد بدأت مطالبهم متواضعة حين طالبوا بعلم جلد العمد والمشايخ حرصا على كرامتهم الشخصية أمام الفلاحين ، وهو أسلوب كان شائعا اذا قصر أحد العمد في جمع أنفار القرعة أو أموال الضرائب ، ثم ما لبثت مطالبهم أن اتسعت بحيث شملت الرقابة على أموال الشعب ، وبحيث أقر الدستور أن النائب ليس نائبا عن قريته فحسبه ، بل هو نائب عن الأمة كلها ، وقد كانوا يطمحون الى أن تظل الأمور تدور في الدائرة الدستورية ، وكان رجلهم الذي يرضونه للحكم هو شريف باشا الكبير . أما الجيش فقد قادته سفينة التأييد الشعبي الى الثورة المسلحة . وانقسم « العلماء الاعلام

والذوات الفخام والمأمورون الكرام ووجوه البلد وأعيان المملكة
ومعتبرو الأهالي الى فريقين ، فريق كبير أخذ الى السكينة أو مال
الى جانب الخديو ، وفريق ضئيل معظمه من أشياخ الازهر وطلابه
مال الى الثورة المسلحة .

وحين فشلت الثورة المسلحة ارتفعت نبرة الاصلاح البطيء
أو المعارك الجزئية ، فوجدناها عند محمد عبده ترويجا للتعليم
وعند قاسم أمين مطالبة بتحرير المرأة ، وعند لطفى السيد مطالبة
بالدستورية ، وعند مصطفى كامل وسعد زغلول تنظيما لأول جامعة
مصرية .

لقد استنكر الجميع دور الثورة المسلحة ، حتى أصحابها
ومسعلو نارها ، قال معظم قادتها انهم لم يقصدوا الى ما حدث وأن
الأمر قد جرت بما لم يكن في الحسبان ، وتسابق الأعيان الى تقديم
فروض الطاعة والولاء لجيش الاحتلال ، فسعى ستة منهم هم :
محمد سلطان ومحمد الشواربى وعبد الشهيد بطرس وعبد السلام
المويلحي ومحمود سليمان « والد محمد محمود » وأحمد السيوفى الى
قواد الحملة الثلاثة : سيمور وولسلى ودورورى فى تكوين لجان
شعبية للاكتتاب فى هذا الفرض « الوطنى » العظيم .

أما محمد عبده ، فقد قال انها كانت « فتنة » وما لنا نذهب
بعيدا ، وعرابى نفسه حين عاد من منفاه أدلى بحديث كئيب يمتدح
فيه الاحتلال البريطانى ، نثبت بعضه هنا والقلب يدمى ، والنفس
تأسى لهذه الأمة المفجوعة التى عانت من العذاب ما صهر ضميرها
حتى أوشك أن يحرقه ، وكان أوجع ما عرفته هو خيبة أملها فى
الرجال الذين أحببتهم .

قال عرابى فى حديث له بالمقطم عدد ٣ أكتوبر عام ١٩٠١
« سألت الذين قابلونى بالعريش من أفراد أسرتى « أصحح أن
السخره الغيت من عندكم ، فقالوا : نعم صحيح ، قلت : والكرabaj؟

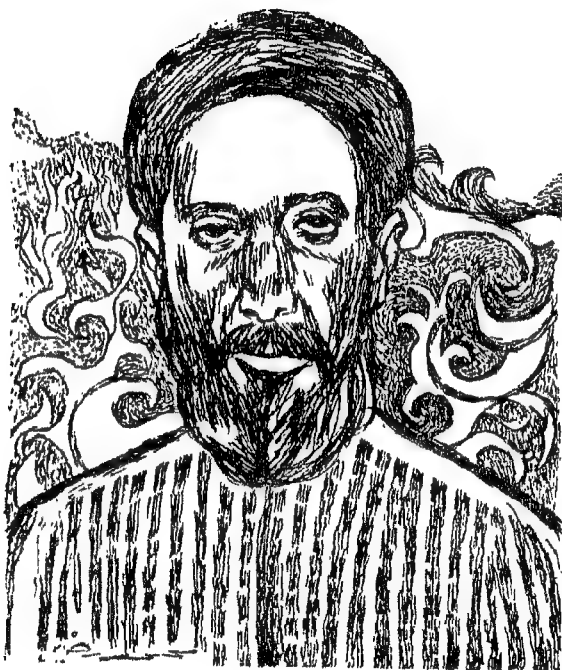
قالوا أنبطل من زمان طويل • قلت : وكيف تحصل الأموال من الأهالي
قالوا بالحق والعدل ، وكل انسان يعرف ما له وما عليه • • وقد
شاء الله أن ينعم على وطني ولكن لحكمة له جل جلاله قضى ألا يتم
ذلك على يدي ، بل على يد الذين نازلناهم في ساحة القتال وكانوا
لنا أعداء فصاروا لمصر اليوم من خير الاصديقاء ، وقد قضى الله أن
أكون واسطة هذا التغيير ، فأنال وطني ما كنت أتوخي وأتمنى له من
الحير • • بحسن تدبير جناب اللورد كرومر الاداري المصلح الكبير «
لقد هزمت أوروبا مصر لا في أرضها فحسب ، بل في روحها
أيضا •

رجل واحد من أبناء الثورة ظل مشتغلا بروح الثورة ، رجل
ليس من طائفة الضباط ولا من طائفة الأعيان ، ولا من طائفة المتعلمين
• • ولكنه ابن من أبناء هذا الشعب وأحد صغاليكه العظام •
هذا الرجل هو • • عبد الله النديم •



الصعلوك العظيم

٥



- ♦ صالون أدبي في محل الطرابيشي !
- ♦ عشر صحف يومية خمسة ملايين !
- ♦ يرفض الاعتذار عن الثورة

- ١ -

تحول ابن الشعب من أدباتى الى أديب ، ومن نديم يسامر
السادة بالفكاهات والطرائف الى ثورى يقض مضاجع السادة ويبدد
أحلامهم ، ومن عبد من عباد الله المغمورين الى رجل من رجالات مصر
اسمه « عبد الله النديم » .

وعبد الله النديم .. سيرة حياة وسيرة فكر معا ، وكلتا السيرتين
لها من البريق والعظمة ما يستحق أن يقف أمامها المؤرخ لوجدان
مصر فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكما رأينا نماذج من هؤلاء
المصريين الخلاقين المبدعين ، يدخلون المدارس ، فيهجرون اللعب
بالطين فى قراهم المتربة المتسخة ، الى اللعب بالافكار أو الجذ بها ،
ويخلعون جلابيبهم الزرقاء أو البيضاء التى حال لونها الى تراب
جامد ، فيلبسون «الحلة المقمطة» والطربوش العثماني ، سواء كانت
حلة الملكية أو حلة الجهادية ، فيكون منهم بعد ذلك الحكماء والمشرعون
والمعلمون والصحفيون والقواد ، كما رأينا كل أولئك من أبناء
المدارس يدخلونها برغبتهم كما دخلها رفاة... أو بالقسر والاكراه حين
يساقون اليها كائنات السخرة كما دخلها على مبارك ، فنحن نرى
الآن رجلا دخل التاريخ من باب الحياة لا من باب المدرسة ، وعرف
مصر عن طريق التسكع لا عن طريق التأمل ، ولكن الحياة كانت
له أكرم بالعلم من كثير من المدارس ، وكان التسكع أكثر اثرًا
لنفسه من كثير من التأمل ، هذا التأمل الذى وهب منه الكثير رجل
اخرقاربه فى السن ، وصاحبه فى القاهرة الثورة ، وعاش بعده
سنوات قصارا ، ولكن لشدة ما اختلف اتجاههما ، هذا الرجل هو
« محمد عبده » .

وما نريد هنا أن نعرض للاستاذ الامام ، ولكننا نريد أن نزيد الامر جلاء بأن نعرض رجلا فى مواجهة رجل ، اما الاستاذ الامام فيقول بعد فشل الثورة العرابية «لعن الله السياسة، وكل ما يصدر عنها .. لعن الله الفعل ساس .. يسوس ..» وأما النديم فيظل يتنفس سياسة حتى ذهب مرض السل بأنفاسه .

انهما مزاجان ، أو طبيعتان ، ولا نقول انهما ينتميان الى طبقتين مختلفتين الا بمقدار ، فلم يكن الفرق بين طبقة اصحاب الحرف ، وطبقة صغار اعيان الفلاحين كبيرا الى الحد الذى يجعل لكل منهما مهادا فكريا مختلفا . كان مزاج النديم مزاج الفنان الشعبى ، المثل ، المهرج ، الصحفي . رجل الدعاية . وأما مزاج الشيخ فقد كان مزاج المعلم المتفلسف المتأمل فى الامور ، الذى يتوقف ليسأل دائما عن الغاية والهدف ، قبل أن يخطو خطوة فى الطريق .. الرجلان هما مثلا الثورى والمعلم فى تلك الحقبة من الزمان .

سيرة حياة

كان أبوه خبازا فى الاسكندرية ، أراد لابنه أن يكون صبى خباز ، فلما أنس منه ذكاء قسر نفسه على أن يرسله الى معهد دينى بالاسكندرية ليعده للآزهر ، ولكن ما شأن هذا الصبى القلق والجلوس على الحصيد ساعات طوالا ، يسمع دروس النحو والفقهاء التى تبدأ بأعراب كل شيء حتى مسائل الحساب ، انه ليجد كل ذلك مملا مستمعا ، فيهرب من المسجد الى الطريق ، تلتقط عيناه وأذناه ملامح الناس ولهجاتهم وطريقتهم فى الحديث ويفكر فى شواغلهم وهمومهم ، ويتردد فى الوقت ذاته على مجالس الاسكندرية الادبية ، فيسمع ويحفظ فنونا من الشعر والزجل والخطب مما يتناقله الادباء والمتأدبون ، ولم تكن المجالس الادبية لذلك العهد

صالونات مؤتة فخمة تتصدرها جميلات النساء كما عرفت ذلك فرنسا منذ القرن الثامن عشر ، ولكنها دكاكين أصحاب الحرف كالحلاقين والعطارين وغيرهم ، فكثيرا ما يكون صاحب الدكان مولعا بالادب والظرف ، فهو يمد المصاعد للادباء والمتظرفين يسامروهم ويسامرونه ، وسوف نجد النديم في أيامه القادمة يفتتح في المنصورة محلا لبيع « الخردوات » ، فيحيله الى صالون أدبي ، ولا يجتمع القلبان في جوف واحد ، فيفلس المحل وتطير مناديل بائع الخردوات الاديب وعظوره في الهواء ..

ولكن التسكح لا يقيم أود النديم .. فهو يبحث عن مهنة ، فيتعلق بأحدث المهن في ذلك الزمان ، وهي مهنة .. التلغرافجى .. ويتعلمها .. ثم يستخدم في بنها ، ويواتيه ما ظنه الحظ .. فينتقل الى القاهرة ليعمل تلغرافجيا بقصر «والدة باشا» بجاردن سيتى ، فهو يرى في هذا القصر فتونا من النعيم والترف والحظ والطرب ، ويصرف له الطعام من مطبخ القصر ويتلقى بعض البرقيات ويرسل بعضها الآخر ، وهو أيضا في حى اسماعيل اذ أنه موظف في قصر والدته ، فاذا انتهى العمل خرج يتسكع في القاهرة ، وتقوده قدماء الى صالوناتها الادبية ، ويستقبله صالون أحمد أفندى وهبى الطرابيشى فى الغورية .. وعلى دقات قوالب الطرابيش ومكواتها ، يدور حديث الشعر والزجل ، ويقوده أحمد أفندى وهبى ذات مساء الى منزل شاعر مصر الكبير « محمود سامى البارودى » وهناك يرى صفوة أدباء ذلك الزمان ، فيرتوى من أدبهم ومحفوظهم ، ويجاريهم عندما تسنح له الفرصة .

وأخطأ النديم يوما في فك رموز برقية ، فأحيل أمره الى خليل أغا كبير أغوات القصر ، وكان رجلا غريبا كأمرء الممالك القدامى يعمل عمل أهل النار بالدس والقسوة ، ثم يريد أن يدخل الجنة ببناء المدارس والسبل لسقى الماء .. وأمر خليل أغا بأن يضرب النديم ويجلد .. ثم يفصل ..

لا القاهرة اذن ٠٠ مأوى للنديم ولا الاسكندرية ، فليستسكع في
الريف والمدن الصغيرة اذا ضاقت به الحواضر ، وليعمل معلما لاولاد
أحد العمد في الدقهلية ٠ وبائع مناديل وعطور في المنصورة ،
وليتردد على الموالد ، وليكن ضيفا على رجال الادب ومجيبه في كل
مكان ٠ حتى يستقر به الرحيل في جوار «شاهين باشا كنج» مفتش
عام الوجه البحرى في طنطا ٠

كان «النديم» قد ذهب الى طنطا ليتسكع في مولد السيد البدوى ٠٠
وعلى أحد المقاهى التقى بصديقه منذ أيام مجلس البارودى ٠٠
السيد على أبو النصر ٠٠ الشاعر ونديم اسماعيل المفضل ٠ وممر
عليهما أدباتى بطرطور يشحذ منهما مليما أو بارة ، ويتوسل الى ذلك
بأزجال من تأليفه ، وما زال النديم يرتجل ، والأدباتى يرتجل حتى
أفحم الادباتى وفر هاربا ٠

وحكى على أبو النصر القصة للباشا التركى فضحك كثيرا ،
حتى استلقى على قفاه كما يقولون ، وبالطريقة العثمانلية أمر بأن
تنظم مباراة زجلية بين النديم وكبار الادباتية الذين كانوا يلتقطون
فترات رزقهم في أيام المولد ، فان غلبوا النديم كافاهم ، وان غلبهم
النديم ضربهم جند الباشا على أعجازهم ٠

ورضى النديم ٠٠ ان الصعلوك مازال صعلوكا ٠٠ لم يتحول
الى ثورى بعد ٠

٠٠ بداية الثورى ٠٠

انصر النديم في المباراة ، وأصبح نديم الباشا بعد ان كان
نديم الافندية والعمد ٠٠

ولكن الأيام الغريبة التى انضجت كل شىء فى مصر أنضجته ،
فقد كانت سنوات اسماعيل الاخيرة حافلة بالاحداث ، كان عرش

اسماعيل يهتز من تحته والاصبع الاجنبية تمتد الى أحشاء مصر ، فتقرر الاشراف على وارداتها ومصرفاتها ، والنقاش يدور بين المتعلمين والمهتمين بشئون البلد حول الدستور والحكم النيابي ، والفلاح يعاني من ضغط الضرائب والسخرة ، والاعيان يصرخون من الغاء قانون المقابلة ، والضباط يحتجون على الاستبداد فيضربون نوبار ويوشكون أن يضربوا اسماعيل .. انها اذن أيام حاسمة ، وقد التقت اذن الصعلوك العظيم كثيرا من أنبائها ، كما التقت عيناه كثيرا من الآراء التي بسطتها الصحف حين أتاح لها اسماعيل قدرا من الحرية ليستعين بها في صراعه مع الاجانب .

ويدرك النديم أن عقله وضميره يأييان عليه ان يظل قانعا بمكانه في جوار الباشا ، فيهجرتنطا الى الاسكندرية ، لينضم الى جماعة سرية تسمى نفسها « مصر الفتاة » فيقنع أعضاءها بأن يحولوها الى جماعة علنية تسمى نفسها « الجمعية الخيرية الاسلامية » ويكون انشاء المدارس وتعليم الشعب .

يتحول الأدبائى الى رجل تربىة ، فيعلم تلاميذه فى المدرسة الأدب والشعر والخطابة ، ويحاول تنمية ملكاتهم ، ويستعين بمقدرته على التقاط اللهجات ، فينشئ فى المدرسة فرقة تمثيلية يؤلف ويخرج لها .. ان التعليم عنده ليس تلقينا لمبادئ العلوم واللغة فحسب ، ولكنه تربىة وطنية بأجل معانى تلك الكلمة .

ويختلف النديم مع زملائه فى المدرسة لامر لا نستطيع أن نقطع فيه برأى ، فيتجه الى الصحافة ، ويخرج فى السادس من يونيو عام ١٨٨١ فى الاسكندرية صحيفته الشهيرة « التنكيت والتبكيت » . يكتب بعضها بالفصحى وبعضها بالعامية حسب الموضوع ، ان كان موجها الى الصفوة من الناس أو الى رجل الشارع .. وهو يعلن مذهبه فى لغة الصحافة حين يقول :

« انه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات أو استعارات ،

ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة
عبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحاديث
تعودناها ، ولغة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجئ الى قاموس الفيروزآبادي
ولا تلزم مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطر لترجمان
يعبر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها ، انما هي في مجلسك
كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفي بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر
عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى ..

وتدلهم الأمور ، وتستعلن التورة ، وينتقل النديم بصحيفته
من الاسكندرية الى القاهرة ، ويسمياها « الطائف » استجابة لرغبة
عرايى ، وتيمنا باسم المدينة الحجازية المعروفة . ويعلم الدستور
في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ تحت ضغط العرايين ، فتقام المآدب
والحفلات ويخطب فيها النديم .. انه يخطب في كل مكان .. في
المآدب والافراح والمعسكرات والمساجد .. « حتى كان اذا سئل
محمد عثمان المغنى المشهور في ذلك الزمان ، أين تغنى الميلة ؟
يقول : في الفرح الفلاني مع عبد الله النديم .. » .

وتسرى الشائعات بمجئ البوارج الانجليزية الى الاسكندرية ،
ويخطب النديم ويقول :

« ان طوابى الاسكندرية اذا أطلقت مدافعها يبلغ مرماها جزيرة
قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الاستانة اذا أطلقت تبلغ هذه
الجزيرة من الجانب الآخر ، فكيفما جالت الاساطيل الانجليزية ،
فهى تحت رحمة مدافعنا » .

ويصفق المستمعون حتى تدمى أكفهم ، وربما ضحك بعض
العقلاء في أكمامهم ، فما زال في الصعلوك القديم بقية من الادباتى .

بعد الثورة

وتفشل الثورة فشلا الاليم ، ويختفى عبد الله النديم في ريف مصر تسع سنوات ، مطارداً من السلطة المصرية التي تولت الحكم بعد فشل الثورة ، محكوما عليه بالتفنى المؤبد ، مطلوباً رأسه بألف جنيه مكافأة تدفعها الحكومة لمن يرشد عن مكانه .

غير النديم أسماءه وأزياءه في هذه السنوات مرات تجل عن الحصر ، فهو مرة شيخ يمتى ، ومرة سائح من المدينة المكرمة ، ومرة حاج مغربي ، ولحيته مرة حمراء قصيرة ومرة سوداء مسبلة ، حتى دل عليه جاسوس من جواسيس السلطة فأرشد عنه ، فسيق إلى سجن طنطا ليحقق معه وكيل نيابة من الملح وأعظم الشخصيات التي عرفت مصر ، هو قاسم أمين .

لم يلح عليه قاسم أمين في التحقيق كثيرا ، وأمر له بالقهوة والدخان على حسابه ، كما أمر بتنظيف الزنزانة قدر الامكان ، وما كاد التحقيق ينتهي حتى كان أمر الخديو توفيق قد صدر بنفيه إلى يافا بفلسطين ، ليعود بعد شهور قلائل وقد عفا عنه عباس خليفة نوفيق ، وليصدر صحيفة « الاستاذ » .

عاد النديم ثوريا كما كان رغم ان كل شيء في مصر كان يميل إلى المهادنة والاستسلام ، كان الناس يطردون أشباح أيام الثورة عن أذهانهم كما تطرد الذكريات الكثيبة ، ويسعى ذوو البقية من النزعة الوطنية إلى مهادنة عباس وشد أزره لكونه الممثل الشرعي للبلاد ، أما العقلاء فقد كانوا يلوذون بكرورم حاكم البلاد الفعلي ، يخطبون وده ، ويرفعون إليه آراءهم وأفكارهم .

ولنقارن هنا للمرة الثانية بين الرجلين : عبد الله النديم ، ومحمد عبده . أما النديم فقد عاد كما عهدناه ، وأما محمد عبده فقد عاد من منفاه بواسطة كرومر حين حدثته الاميرة نازلى فاضل عن

كفاءته واستقامة فكره ، وكان سعد زغلول جليس صالونها قد حدثها حلو الحديث عن صديقه الغائب .

ويعود محمد عبده ، فيبدأ جهوده الإصلاحية بكتابة تقرير عن اصلاح التعليم ، ويرفعه الى كرومر بوصفه صاحب السلطة الحقيقية فى مصر ، بينما يعود النديم ليخاطب الشعب عن طريق صحيفته « الأستاذ » .

كانت « الأستاذ » حربا على التدخل الأوروبى كما كانت الطائف . ودعوة الى الوحدة الشرقية والإسلامية فى وجه الاستعمار ، واستنهاضا لهذا الشعب الذى ذهبت الهزيمة بلبه أن يتماسك ويدرك مقومات وجوده ويحافظ عليها ، يحافظ على دينه وثقافته ولغته ، وتوقفت « الأستاذ » بعد أقل من عام من عمرها . ونفى النديم مرة ثانية ، ولم يكذ يحط رحاله فى مصر . .

وفى الاستانة عاش النديم ثلاث سنوات وبضعة أشهر ، حتى مات فى العاشر من أكتوبر عام ١٨٩٦ .

وفى هذه السنوات كان جمال الدين الأفغانى يعيش هو الآخر فى الاستانة ، فى القفص الذهبى الذى أعده له عبد الحميد ، وكثيرا ما كان الثوريان يتلاقيان ، ويخرجان للنزهة فى أرباض الاستانة ، يتذكران أفعال الزمان ، وقدايم الأصدقاء ، ويدركان - والمرارة ملء حلوقهما - أن الطريق طويل ، وان ما أراداه من خير قد آل الى ضده ونقيضه .

كان الأفغانى يتذكر ان البارودى ، وهو عنده أفضل من عرف من المسلمين ، عاهده مرة ألا يدخل وزارة رياض ، ثم دخلها . وكان يقول :

« ان مصر أحب بلاد الله الى ، وقد تركت لها فى الشيخ محمد عبده طودا من العلم الراسخ ، وعمرها من الحكمة والشهم وعلو

الهمم ، وانى ليذهب بى العجب ، ويأخذ منى كل ماخذ عندما أرى
المصريين فى جمود ، وأولى الهممة منهم فى قعود ، وكيف لم يتسن
الى الشيخ فى همته ونهضته ، وله من تلاميذه مثل سعد زغلول
وأخوانه خير أعوان ، ولم تتألف منهم الى اليوم عصبة حق تصدم
باطل الانجليز ، وتجليهم عن الهرمين وتصون الحرمين ، فلم يبق فى
قوس الصبر منزع ولا فى معونة الغير مطمع » .

ولكن مصر كانت قد سارت فى اتجاه آخر . . . انها تتحدث عن
التعليم وتحرير المرأة واصلاح الازهر وتجميع رأس المال الوطنى . .
انها تخوض المعارك الجزئية ، فان درس الثورة الشاملة لم ينس
بعد .

الرجل . .

بعد موت النديم بعام تقريبا مات جمال الدين ، وانطوت أعلام
التيار الثورى ، كما انطوت الصفحة الناضرة الأخيرة من ذكريات
الانتفاضة العربية .

والمؤرخون يقولون ان النديم كان لسان الثورة العربية .
ولكنه فى الواقع لم يكن لسانها فحسب بل كان أحد أقطابها ، بل
لعله أكثر أقطابها فاعلية ، وبخاصة بعد أن خرجت عن دائرة الجيش
لتصبح ثورة شعبية يشارك فيها الجيش والاعيان وسواد الشعب
معا ، فضلا عن كونه الممثل للجانب النظرى من حركتها ، فرغم أن
من بين زعمائها رجلا كالبارودى ، له مكانه العظيم فى تطوير الشعر
العربى . . . الا أن رؤيته السياسية لم تكن واضحة له أو لرفقائه ، حتى
أنهم شكوا كثيرا فى أنه انضم للثورة ، حتى يصل الى حكم مصر
بوصفه من سلالة السلطان المملوكى «الاشرف برسباى» كما قال له
عرايى فى إحدى جلساتها .

أما النديم ، فقد كان واضح الفكر ، وكان فكره هو محرك

الثورة فى أيامها الأخيرة ، ولكن هذا الحديث يستدعى وقفة متأمله عند فكر النديم .

- ٢ -

أصبحت البدعة التى أحدثها محمد على فى الحياة المصرية ، هى الشاغل المزعج لدولة أحفاده من بعد . ففى عام ١٩٢٨ حول محمد على جورنال الحديو أو النشرة الدورية التى كان يصدرها بأوامره الى ولاته وكبار موظفيه الى صحيفة سماها « الوقائع المصرية » ، وأمر بتوزيعها على من يتقاضون الف قرش شهريا من الموظفين ، على أن يدفعوا الاشتراك السنوى فيها .

ومرت الأعوام ، وأهل عصر اسماعيل باضطرابه واحتدامه ، وكان اسماعيل يبنى أن يوطد مكانته بين ملوك العالم بتحسين واجهة الحياة المصرية واسباغ ألوان الزينة والزخرفة عليها فوجد فى الصحافة مثلما وجد فى الأوبرا والمسرح لونا من الديكور الذى يقنع أصدقائه فى أوروبا بعصريته واصلاحه . فى ظل هذه الساحة المداجية صدرت بعض الصحف « الاهلية » كالأهرام ووادى النيل وروضة الأخبار وغيرها .

وحين أصدر النديم صحيفته « التنكيت والتبكيك » كان فى مصر التى لا يزيد عدد سكانها عن خمسة ملايين نسمة حوالى عشر جرائد يومية ، يتفرق ولاؤها بين مختلف الاطراف المتنازعة على هذه الارض التى تواجه مصيرها . ورغم أن توزيع هذه الصحف كلها كان لا يتجاوز خمسة عشر ألف نسمة ، الا أن هذه الصحف كان أثرها أكبر من عدد نسخها الموزعة اذا قيس الانتشار بمدى وصول الكلمة الى الناس ، ويحدثنا ميخائيل شاروويم أحد مؤرخى ذلك الزمان فى كتابه « الكافى فى تاريخ مصر » عن هذه الفترة قائلا :

« وتشوف الاهالى الى معرفة ما سيكون وتزايد تساؤلهم عما فى صحف الأخبار وأكثروا من شرائها ، واضطر من لا يعرف القراءة الى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم فى الشوارع جماعات وبينهم الرجل أو الصبي يقرأ عليهم ، أو يقف صبي فى حانوت وييده صحيفة وامام الحانوت خلق محدقون بالصبي وهو يقرأ » .

كانت الصحف تقوم اذن بدور الخطيب المتنقل الذى يخاطب الناس محاولا أن يشرحهم ، فهو لذلك يصطنع الوانا مختلفة من التعبير ، منها البلاغة والاسجاع والفكاهات والقصة الوعظية والمعلومات المصوغة فى شكل جذاب . ولعل هذا المعنى هو ما فهمه النديم ، اذ كانت صحيفته التنكيت والتبكيت صالحة للقراءة فى جمع أكثر من صلاحيتها ليقراها الانسان منفردا ، وكانت ايضا مثيرة للنقاش بعد قراءتها ، كأنها تدعو الناس أن يقرأوها ثم يتلحقوا حلقات لكى يتأملوا ما فيها ويعيدوا بحثه والنظر فيه .

فى احدى صفحات العدد الاولى مقال قصصى أو ما نسميه قصة العدد ، وعنوانه «مجلس طبى لمصاب بالافرنجى» . . ومرض الافرنجى هو مرض الزهري كما كانوا يسمونه فى ذلك الزمان ، والقصة قصة شاب جميل الحيا والخلق ، نشأ فى ظلال الفضيلة والورع حتى ترصد له أحد الماكرين ، فأخذ يعرض عليه الفوانى حتى مال الى واحدة منهن ، فأصابته مع اللذة التى اجتناها بمرض الافرنجى ، فأخذ أهله يطلبونه بعد أن ساءت حاله . وتدهورت صحته والاطباء المخلصون يتأملون فى دائه ، ويصفون له الدواء . . واذلنا نستطيع أن نعرف ان هذا المريض هو مصر ، وان هذا الداء الافرنجى هو السيطرة الأوروبية ، وان هؤلاء الاطباء هم أبناء مصر المخلصون .

ومقال آخر ، أو نكتة ان صح التعبير عنوانها «عربى تفرنج» ،

وهى عن شاب اسمه « زعيط » من أبناء الفلاحين ، ذهب الى اوروبا ليتعلم فلما عاد استقبله أبوه « معيط » على المحطة وقبله ، فلامه على تقبيله ، وطالبه بأن يكتفى بالسلام عليه باليد كما يفعل الفرنجة ، وأن يقول له « بون أريفيه » ثم يذهب الشاب الى أمه « معيطه » فيطلب منها « الاونيون » أو البصل .

ومقال ثالث عنوانه « سهرة الانطاع » يقص قصة بعض الشباب الموسرين يجتمعون في بيت أحدهم ويجلسون وهم ساهمون هادئون ، فيظنهم النديم قد اجتمعوا للتدبر في شأن الكون ، أو التفكير في أمر الوطن ، أو التأمل في بدائع صناعة اوروبا وكيف ينقلونها الى مصر ، ولكنه يعرف انهم قد اجتمعوا من أجل تعاطي « الكيف » ، وهم يقولون : مالنا وللدنيا وما جرى فيها ، ومالنا وللصحف وللتغرافات « برقيات وكالات الأنباء » .. نحن والحمد لله في غنى عظيم ، وقد خلف لنا آباؤنا من المال مالا تغنيه الأيام .

وقصة أخرى في العدد نفسه عن انقسام مستمعي الشاعر الشعبي في أحد المقاهي بين عنثرية وزغبية ، وما كان من أحدهم ، وقد ختم الشاعر الشعبي انشاده في إحدى الليالي بوقوع عنثرة في الأسر ، فذهب هذا الرجل الى ابنه الذى يعرف القراءة ، وايقظه من نومه ، وأمره أن يقرأ فى الكتاب حتى يخلص عنثر من الأسر ، والا مات كمدا فلما لم يطعمه الابن ، وحاول افهامه ان هذا كله تخريف ، انهال عليه بعصاه حتى رض عظامه ..

وقصة تالية عن رجل غنى بنى بيتا كبيرا ، واثته بأبدع الاثاث ، وجعل بين اثاثه مكتبة ضخمة ، ثم دعا إزائريه ليروا بيته ، فسأله أحدهم عن المكتبة وما تحويه ، فأجاب صاحب البيت : لقد دخلت بيت فلان وفلان فرأيت في مضيفة كل منهم خزانة كتب عليها ستارة خضراء وبجانبها منفضة من الريش والخادم

ينفضها كل يوم ويمسح زجاجها ، فعلمت ان هذا طراز جديد في بناء البيوت وتأثيرها .

وهكذا صدرت التنكيت والتبكيت . . صحيفة هازلة خفيفة الظل ، وان كانت لا تتناول من الأمور إلا ما يؤلم ويحز في النفس ، وذلك هو طابع المصرية المتغفل في ثناياها ، الطابع الذى أدركه النديم وهو يتصعلك في بقاع الوطن ، ويتنقل بين مدنه وقراه ، لقد أدرك ان المصرى يحب النوادر ، ويهوى أن يتكلم بالامثال ، وكثيرا ما يميل الى السخرية من نفسه ، ولقد ابتكر في صحيفته شخصيات من الكاريكاتير المكتوب ، منها شخصية « معيط » الفلاح المصرى الساذج السليم الطبع ، وشخصيات أخرى كاريكاتورية مثل « ست الدار » و « مسعودة » وغيرها . فأثرى بذلك أسلوبه وخياله القصصى الوثاب .

بلغ توزيع العدد الأول من التنكيت والتبكيت ثلاثة آلاف نسخة ، هى جملة ما طبعه منها ، وما لبثت أن اصطدمت مع صحف الاتجاه المضاد ، كصحيفة المحروسة وغيرها ، ثم كشفت عن وجهها الثورى ، لا الانتقادى فحسب ، بعد أن تسارعت الاحداث ، ووصل المد الثورى الى غايته ومداه .

أصبح النديم ثوريا قبل أن يلتقى بالعرايين ، فقد عبر وهو فى الاسكندرية ، يصدر صحيفته « التنكيت والتبكيت » عن بواصر التمرد عند المدنيين بل لعله فى بعض الاحيان يجاوز العرايين ويفوقهم وعيا فى ادراكه لابعاد المشكلة المصرية ، فنحن نراه يتحدث عن علاقة الفنى بالفقر والمالك بالفلاح بغض النظر من كون هذا الفنى أو المالك تركيا أو مصريا ، فى الوقت الذى كان العرايون فيه يتحالفون مع سادة الاقطاع المصرى الناشئ ، ورؤيسهم البارز محمد سلطان .

يقول مخاطبا الأغنياء :

((تعال فانظر الى سلام رفعتك ومعدن حياتك ونبيع ثروتك ،
أخيك - استغفر الله - خادمك الفلاح .. انظر الى ثوبه المهلهل
ولبدته التي لاتستتر يافوخه ، ورغيفه الذي لاتكسره قوتك ومشه
الذي تعاف النظر اليه ، وأرقبه وهو يسقي الزرع والطبن الى
فخذه والشمس تشوى وجهه وجسمه ، يقطع يومه في عذاب
وعمل .. وهو صاحب الفضل عليك وانت لا تنظره الا بعين المقت
ولا تعامله الا بيد الاهانة ولسان السب ..))

وفى أحد أعداد سبتمبر عام ١٨٨١ من التنكيت والتيكيت
يتخيل النديم حوارا بينه وبين أحد تلاميذه حول الحكم النيابي ،
والمناقشات دائرة حول الدستور الجديد ، ونقل هنا لمحات من
هذا الحوار .

التلميذ : وهل يوجد في وطننا من فيه أهلية لذلك « لتمثيل
الامة في المجلس النيابي » غير الأغنياء .
النديم : لا يخفاك ان الوطن فيه الذكي والبليد والفني
والفقير ، فان كان الانتخاب مقصورا على الأغنياء دون الأذكياء كان
مجلس النواب وبالا على الشعب والوطن .

التلميذ : من من أين يأتي الوبال ، وهم من أهل الوطن
الحائزين للرتب العالية ، وهم أدرى بحال الوطن وصالح المواطنين .
النديم : لا يخفاك أن ابن الفنى مولع بالاستبداد والاستعباد ،
فهو يميل الى استخدام الفقراء بلا مقابل ، وضرب الضعفاء من غير
أن يعارض أو يحاكم ، على أن أباه اذا كان من حكام البلاد فانه أدرك
الثروة بنهب الفلاح وظلمه ، فوجود مثله في مجلس النواب علة
لزيادة هلاك الشعب ، فيشرعون من القوانين ما يضمن مصالحهم
ليضعوا بذلك حدة أذهان الفقراء ويحبسوا الثروة لانفسهم .

التلميذ : واذا كان من أولاد الاتراك الذين تولوا مناصب
الرئاسات في الدولة .

النديم : لا تحكم على الرؤساء الأتراك الا بعد معرفة أسباب ثروتهم ، فان كانت بجدهم واجتهادهم كانوا أحرص الناس على حفظ الهيئة الاجتماعية ، وان كانت بطريق الظلم والنهب والرشوة كانوا أشد ضررا لحبهم الظلم الذي صيرهم في هذه الثروة بعد ان كانوا لا يملكون قوت يومهم ، ومن هذا القسم من لم ير الريف ولا يعرفه فكيف يكون نائبا عنه .

وقد يكون منهم كثير من أهل الخبرة والدراية ولكن حبهم لذاتهم يعطل كثيرا من النعمة ، فان وجدوا في مجلس النواب ولم يكن معهم احد من النبهاء الأذكياء من أهل البلاد كان نواب هذا المجلس عبارة عن لعبة يديرونها كيف شاءوا ، فاذا تشكل هذا المجلس من هذين القسمين «الاقطاعيين المصريين والحكام الأتراك» جعلتكم الدول رواية تياترية يشخصونها في المحافل ليضحكوا على أهلها .

كل هذا اذا كان المجلس مطلق الحرية في أفكاره لا يعارضه احد في المصلحة ولا يلومه بشيء لم يقر عليه ، أما اذا كان مقيدا بما يصدر اليه من الوزراء ، فلا تسأل عن أعضائه وأهله فانهم صورة وهمية لا حقيقة لها ولا أثر .

التلميذ : وهل يحتمل الشعب اطلاق حرية الافكار قبل أن يتدربوا على أعمال المجلس واستخدام تلك الحرية .

النديم : نعم .. يحملونها ويحفظونها ويسرون بها ...

هذه لمحات من هذا الحوار الذكي ، نستطيع أن نرى فيها مهادها الفكرى أو نقطة انطلاقها ، فهي تنطلق أساسا من قانون لم تعرفه الانسانية الا حديثا في مسيرة تفكيرها الاقتصادى ، هذا القانون هو أن الوضع الاقتصادى لبلد ما .. هو فى الحق تركيبه أو بناؤه الاساسى أو التحتى ، وليست القوانين والتشريعات والثقافة بعد ذلك الا تركيبات فوقية تخضع لهذا التركيب الاساسى .

فالنديم يحدثنا أن هؤلاء الأغنياء والاقطاعيين سيضعون من القوانين ما يكرس وجودهم اذا انفردوا بسلطة التشريع والتدبير للامة . ولا نريد أن نقول ان النديم قد عرف هذا من خلال قراءته ، ولكنه عرفه بلا شك من خلال نظره في أمور بلده . ولعله عندئذ كان يرى ثورة الاعيان على قانون المقابلة الذى يتعرض لاموالهم وثرواتهم . والنديم يحدثنا عن ضرورة الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ولا يرى ضمانا لفاعلية المجلس الجديد الا ابعاد سيطرة الوزارة عليه ، فان سيطرت الوزارة عليه فتلك هى المهزلة المضحكة أو الرواية التياترية التى سيضحك لها ومنها كل من يريد أن يضحك في هذا الكون .

وهو أيضا يرى اننا يجب ألا نتذرع بالجهل السائد لكى نحرم مواطنينا من حق الانتخاب والنظر في أمور بلادهم ، فمنهم الذكى والمستنير ، وكأنه يشير بذلك الى وجود « طليعة » أو « صفوة » من أبناء المصريين ، لم تجمع المال وتحز الثراء ، ولكنها جمعت أطرافا من العلم والتجربة ، ومن حقها عندئذ أن تتصدى لتمثيل مواطنيها .

وكانه أيضا يقول لنا ان علاج أخطاء الديموقراطية هو دعم الديموقراطية والمزيد منها ، وان التجربة تكشف دائما عن المواهب القادرة حين يقول فى ختام هذا الحوار :
اعلم يا ولدى ان الشئ فى أوله لا يجيء على صورته الحسنة فى سائر الجهات ، بل لا بد من النقض والابرار والخطأ والتصويب والتغيير والتبديل حتى تتقدم الأفكار وتحسن الأحوال .
هذا هو النديم إبان المعركة الدستورية التى سبقت الثورة :
أما فى الثورة وما بعدها فقد كان لفكره شأن .. أى شأن .

- ٣ -

واشتعلت نار الثورة ، سرى فى أول الأمر متباطئة هادئة ، ثم

ما لبثت أن ملأت الجو لها ودخاناً ، وعرف النديم مكانه فيها ، فهو اللاعب الماهر بأعصاب الجماهير وخيالها ، لقد نقل النديم الخطابة من ساحة المسجد كما عرفت في مصر في عصور المماليك والعثمانيين الى ساحة الحياة ، وبث بذلك تقليد الزعيم الخطيب الذي سنجده عند مصطفى كامل وسعد زغلول ، والذي سيتوسع مداه حتى نجده لدى رجال الاحزاب السياسية وزعماء الطلبة في عهد طلب الاستقلال . وكأنه كان حين بعث هذا التقليد يستهدى بسير زعماء الثورة الفرنسية بفصاحتهم المتدفقة ، ولعلهم بطرائف الكلام ، أو يسير خطباء العرب المبرزين في عهد النهضة الاسلامية . وقد تكون الخطابة بطبيعتها غير صالحة لبث الأفكار المدروسة والحجج المرتبة ، فالخطابة اثاره وتهيج قبل أى شيء ، والخطيب يخاطب الوجدان الجماعى لمستمعيه ، وما ذلك شأن الصحفي أو الكاتب ، فالصحفي يصل الى قارئه حين ينفرد القارئ بنفسه ، وهو لذلك مطالب بأن يحكم العقل والمنطق فيما يقول . وكذلك كانت صحيفة « الطائف » حين أصدرها النديم أبان الثورة العربية ، فهو يعلننا فى عددها الأول أن زمن « التنكيت » و « التبكيت » قد انقضى ، وأن على الأمة أن تواجه مشكلاتها بوافر من الفكر والرأى ، ونرى النديم فى أعداد « الطائف » يشرع عديداً من المشكلات الاجتماعية ، كمشكلة تأخر الصناعة فى مصر ، وانعدام الشركات المصرية ، واتجاه رأس المال المصرى الى الزراعة واقتناء الاطيان ، وبقايا الرقيق فى مصر وحققهم فى التحرر ، وسيطرة الموظفين الاجانب على الادارة المصرية . كل تلك وجوه متعددة من المشكلة الكبرى ، وهى المشكلة الوطنية ، التى لخصتها الثورة العربية فى شعارها « مصر للمصريين » . وفى طلبها للدستور وحق الشعب فى تقرير أموره ، ورفع الوصاية الاجنبية من أمواله ومقدراته .

وانقضت ملحمة الثورة انقضاءها المؤسف ، وكانت أيامها

سجلا ضخما فيه صفحات من الشجاعة الرائعة والخيانة الهابطة وسوء التدبير المرير ، وقرر عرابى الاستسلام ، فلجأ الى المجلس العرفى الذى كان قد انشأه بالقاهرة من وكلاء الوزارات لحكم البلاد فى أثناء غيبته وغيبة الخديو ، فنصحه المجلس بكتابة عريضة اعتذار توجه الى الخديو فى الاسكندرية ، وأوكل الى عبد الله النديم أمر صياغة العريضة فكتبها متجنباً الاعتراف فيها بجريمة عرابى فى حق الوطن كما أراد المجلس ، بل لقد ألقى اللوم كله على المحتل الانجليزى الدخيل ، قائلا لأعضاء المجلس « لقد فعلنا ما وجب » . ولم يوافق المجلس على الصيغة التى كتبها النديم ، وأملى بطرس غالى وكيل وزارة الحقانية ، ورئيس الوزراء فيما بعد عريضة أخرى ، يعترف فيها عرابى بالعصيان ، ويستدر فيها عطف الخديو ورحمته ويلتمس العفو عنه وعن زملائه .

ومما يذكر أن النديم حين كان فى مكتبته ، كانت تصله أنباء الخلاف بين زعماء الثورة ، وهم يتبادلون اللوم والتقريع فى مناهمهم الاليم ، ويلقى كل منهم بالوزير على كاهل صاحبه ، حتى لقد بلغ بهم الأمر الى حد التخاصم والمنازعة ، وكان النديم يسمع أنباء ذلك ، فيدمى فؤاده ، وتنفطر نفسه حزنا على هؤلاء الصحبة من الرجال ، الذين فتح لهم التاريخ باب كإبطال مأساويين ، كانت هزيمتهم لانهم واجهوا قوى أكبر من طاقتهم ، ولكنهم يوشكون أن يوصلوا باب التاريخ أمام أسمائهم الرنانة بهذا اللغو الأجوف الاليم .

كان النديم يكتب رسائله لعرابى فى منفاه ويرسلها من مكتبته تحت أسماء مستعارة ، يوصيه فيها بأن يستعد للجولة الثانية ، حتى كأنه كان يتمنى أن يعود عرابى ليستأنف ما بدأ ، وقد خلع عن نفسه رداء الهزيمة ، أنه يقول له :

« فامامك مستقبل انت عصامه يجمع فريقا أنت أمامه ، وقد تطاولت الاعناق بعظيم الاشتياق الى ذلك الميقات ، وكل ما هو أت آت » .

ويكتب له باعثا الشجاعة في نفسه ، مطمئنا اياه على الروح
الوطنية في الشعب :

« ان حال الاحرار بعد النفي والاضرار ، قد فتح الله ابصارهم
فتبصروا ، وصفي بصائرهم فتنوروا وسقاهاهم شراب الحبة
فاتتلفوا ، وهداهم الصراط المستقيم فما اختلفوا ، واذا قيل
للاحد منهم : هذا عرابي المشرب ، فرح كانه قد فتح له مطلب ،
واذا اتى منك كتاب الى بعض الاحباب ، دار به على الاخوان وهو
فرحان ، فانت في مصر وان كان جسمك في سيلان » .

اما عن الخلاف بين الزعماء فهو يكتب اليهم في منقاهم خطابا
نراه آية في فهم السياسة وادراك مراميها ، كما هو دليل على
تقديره لروح التاريخ ومنهجه حين يسجل الحقائق ويقيم اقدار
الرجال .

انه يبدأ خطابه بالآية القرآنية « الم ، احسب الناس ان
يتركوا ان يقولوا آمنا ، وهم لا يفتنون » . . فهذا الخلاف بينهم
اذن ، لون من الامتحان لشجاعته وبطولتهم ، وهو في فاتحة
خطابه يستثير حميتهم جميعا بتعداد مآثرهم ومكانتهم ، فمحمود
سامي البارودي ، هو محمود العواقب سامي المراتب وعلى فهمي
هو على الشأن محب الجنان ، ومحمود فهمي هو محمود السيرة
بالهمة الكبيرة ، ويعقوب سامي هو يعقوب الامل رجل العمل ،
وعبد العال حلمي هو عبد العال واحد الرجال . . وهكذا ، حتى
يقول « فاذا لم تكن عهودكم وثيقة ، ورابطة جمعكم أليقة ، وعدتم
الى الديار على التباعد والنفار ، ساءت بكم الظنون . ومالت عنكم
القلوب والعيون . وصرتم عرضة للدسائس ، ومرجعنا لاهل
الخصائس ، وذكركم المؤرخون بالنقائص ، وجردوكم من الفضل
والخصائص ، وانكرت اوربا دعوتكم الوطنية وتبجح عدوكم بنسبة
الهمجية ، واعيدكم بكل آية من وصولكم لهذه الغاية ، فانتلفوا
قبل ، واقتلوا الضفائن بالعتاب » .

.. . الأستاذ

وانقضت أيام الهرب والتخفى والمنفى ، وكانت مهمة النديم بعد عودته في عام ١٨٩٢ أشق وأصعب ، لقد كانت روح الاستسلام تخيم على الأمة ، وكان « كرومر » يبسط ظله على كل مظاهر الحياة المصرية ، ولقد بدأ النديم عندئذ في إصدار جريدته « الأستاذ » محددا هدفه بشكل واضح ، وهو « إصلاح ما فسد من أخلاقنا » . والأهم عادة حين تتردى في هاوية اليأس تنزع أخلاقها وتماسكها الى الانحلال ، ولقد عرفت مصر في هذه الفترة اقبالا واضحا على متع الحياة الصغيرة ، ونزعة مسرفة الى اللامبالاة والفردية ، وها نرى النديم يحاول أن يثبت في هذا الجسد الخامد نوعا من التماسك ، فيحدث الناس عن التعليم ونشره ، وعن الصناعة والاستعداد لها ، وعن النساء وتحريرهن من الجهل ، ولكنه يعنى قبل أى شئ باحياء ما نسميه بالتراث القومى للامة ، المتمثل في لغتها ودينها ، فيدافع عن اللغة العربية في وجه تيار نشر الانجليزية في الحياة والمدارس ، ويشيد بالدين الاسلامى كأساس من أسس الكيان الوطنى المصرى .

كانت اللهجة هادئة ، اذا هاجم النديم الاستعمار هاجمه دون تحديد واذا تحدث عن الاحتلال تحدث عن احتلال الغرب للشرق دون تفصيل ، وظلت اللهجة هادئة ، حتى اصطدم النديم بصحف الاحتلال ، وعلى رأسها صحيفة المقطم ، ثار ثائرة وبدأ يقذف الحمم والصوافق .

.. الإقذار

وتاريخ هذه الصحف الاحتلالية هو بلا شك صفحة سوداء في تاريخ سوء الفكر والمقصد ، فقد حاول الانجليز استغلال ظاهرة اقبال المصريين على الصحف ، فأنشأوا مجموعة من الصحف التى توالى مقاصدهم ، وكان من أبرزها صحيفة المقطم التى صدرت فى

عام ١٨٨٩ بعد الاحتلال بسبع سنوات ، ثم ظلت تعيش حتى
اختنقت مع اختناق النفوذ الانجليزى فى مصر .

أصدر المقطم ثلاثة من الوافدين الى مصر هم فارس نمر
ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس ، وهيات لهم السلطة الانجليزية
سابع معونتها ، فأعدت للصحيفة مطبعة خاصة كانت تطبع المقطم ،
ثم تقوم بطيه فى طيات صغيرة يسهل حملها ، وبخاصة فى جيوب
العمد ومشايخ البلاد ، كما طبعت منشورات الحكومة فى هذه
المطبعة بعشرة أمثال تكاليفها .

ولقد بلغ من تضليل المقطم أن توهم بعض العمدة والإعيان أن
الاشتراك فيها مجلبة لرضاء السلطة البريطانية ، وقد حدث ذات
مرة أن صرح أحد المسئولين الانجليز كاذبا ان موعد الجلاء قريب ،
فهبط توزيع المقطم مائة وعشرين اشتراكا ، ولم تكن المقطم وحدها
فى هذا المجال ، بل ظاهرتها صحف أخرى من الوافدين ، إذ أصدر
أرمنى يدعى « الكسان صرافيان » جريدة سماها الزمان ، وأصدر
« الياس زاخورة » صحيفة سماها مرآة الشرق ، كما أصدر آخر
يدعى روفائيل مشاقة صحيفة دعاها « الاتحاد المصرى » .

تكتب المقطم فى ابريل عام ١٨٩٠ ، مهاجمة المصريين .

قائلة :

« ثم ما هو هذا الاستقلال الذى يكونه ، والحرية التى
يندبونها ، ففى زمان أى الآباء والاجداد تمتعوا باستقلال وحرية
حرموها الآن ، ومتى كان زمام البلاد فى قبضة يدهم وسلب منهم ،
وما ضرهم اذا انفردت بالنفوذ دولة واحدة بينهم لا سبع عشرة
دولة أجنبية ، واى خسارة خسروها بتقليد رجال من الانجليز
وظائف كان يتقلدها غيرهم من سائر الاجانب » .

وتمضى المقطم فى حملتها الضارية ، فتكتب ان على المصريين
ان يكفوا عن طلب الاستقلال ، فتانس السلطة البريطانية الى
هدوئهم وطاعتهم ، فتعطيهم عندئذ بعض مطالبهم .

كانت هذه هي الحال عندما عاد النديم الى الصحافة ، اذ كانت صحف الوافدين قد استشرى ضررها ، وتنوعت وسائل تأثيرها على الراى العام بين صحف سياسية ومجلات تدعى انها مجلات أدبية أو علمية ، وتدس سمومها فى الكيان المصرى القلق المنهك .

يحدثنا سلامة موسى فى كتابه « الصحافة حرفة ورسالة » عن هذه الفترة ، وقد أدرك أواخرها ، فيقول :

« وكان عارا علينا أن يוכל تكوين الراى العام المصرى الى أقلام غير مصرية ، غريبة عنا فى المزاج ، لا يشغل قلوب اصحابها ما يشغل قلوبنا من آماني وآمال ، وكان علينا جميعا أن نقرأ كل يوم ما يكتبه لنا الصحفيون غير المصريين فيما يجب وما لا يجب أن نتبعه فى سياسة بلادنا من الخطط ، وكانت الصحف والمجلات غير المصرية تنساب بين العامة كأنها الحياة السامة ، وبها هذر وهذيان وسخف لتسميم العامة وافساد عقولها » .

الاستقلال . . الاستقلال

و ضد هذه الصحف كانت معركة النديم الاخيرة فى مصر : وحين اشتدت النبرة تفتح النديم عن ثورته مرة ثانية ، فأخذت كلمة « الاستقلال » ترد على فلهمه كعاصم لمصر من هذا التخريب المتعمد .

« أى مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم . . أصرنا أقل درجة من فعلة الانجليز والفرالين الذين تعصبوا لحقوقهم وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم .

فيا بنى مصر . . لم تبقى قطعة من الارض الا والجرائد تنقل اليكم أخبارها ، وتروى لكم أعمالها فى طلب استقلالها . . ليعد المسلم منكم الى أخيه المسلم تأليفا للعصبية الدينية ، وليرجع الانسان الى

القبطي والاسرائيلي « اليهودي » تأييدا للجامعة الوطنية ، وليكن
الجموع رجلا واحدا يسعى خلف شيء واحد . . . هو حفظ مصر
للمصريين » .

ويسمى النديم صحف الاحتلال جرائد الاجراء ، ويدعو ما
ينشرونه بالقاذورات ، ويسترسل في الغيرة الوطنية ، حتى يعود
الى ذكر كل الأمجاد السالفة ، وتتطلع الأمة الى عهد جديد ، ولكن
الاستاذ لا تعيش طويلا اذ تضطر للاحتجاج بعد بضعة شهور ، ثم
لا يلبث صاحبها أن ينفي من جديد .

ولقد كان هذا الدور الجديد للنديم من اعظم ادواره واجلها
رغم انه لم يستمر زمنا طويلا ، ولكن لا شك ان الاستاذ وبعض
الصحف الوطنية الاخرى قد استطاعت ان تقف وقفة صلبة في
وجه هذا الطوفان العارم ، وسنجد احصاء بتوزيع الصحف في عام
١٨٩٣ يحدثنا عن شيوع « الأستاذ » ومكانتها في ذلك الزمان .

المؤيد ١٢٠٠ نسخة	وطنية
الهلال ٧٤٠ نسخة	احتلالية
المحرسة ٨٠٠ نسخة	احتلالية
المقطم ١٤٥٥ نسخة	احتلالية
الأستاذ ٢٢٨٨ نسخة	وطنية
الأهرام ٢٧٧٥ نسخة	محايده مع ميول فرنسية
المقتطف ١٣٠٠ نسخة	احتلالية

ولقد ذكرت المقطم خبر نفى النديم وتمطيل الاستاذ قبل
حدوثهما ، تهديدا له ، ولكن النديم لم يهن . حتى أتى الخبر
اليقين ، فاذا به على ظهر مركب الى يافا للمرة الثانية ، ومنها الى
الاستانة .

وفي الاستانة مات النديم ، لتطوى سيرة حياة عاطرة . وسيرة
فكر كريم العطاء .

فكر الأعيان

٦



- (٧٠٠) جارية عند اسماعيل المفتش !
- حزب الأحرار يقتل الحرية !
- مديرو الأقاليم لا يعرفون القراءة والكتابة !

حين أسلم عرابى سيفه ، ووضع كتاب الثورة أقلامهم ، خلا
المكان للفكر الاصلاحى ، وانسحب الفكر الثورى الى المنفى والغربة
أو التشتت والتفرق فى البلاد .

ونقصد بالفكر الاصلاحى ، هذا اللون من الفكر الذى يواجه
القضايا الملحة والمواقف الحاسمة ، فيؤثر أن يتناولها بالدرس حتى
يفصل أجزاءها ، ويرتب الحاسم وغير الحاسم منها ، ثم يتناول
جانبا من جوانبها ، يجده أقرب الى العلاج ، وأجدر بالحل ، فيركز
فيه معركته ، مؤجلا غيرها من أوجه القضية أو الموقف الى أمد
قريب من بعيد .. انه فكر القضايا الجزئية والحلول القريبية ..
فكر التوسط والمهادنة والتأجيل .

ينمو الفكر الاصلاحى فى أوقات الانحسار والانهمزام ،
ويتبناه « العقلاء » من أبناء الأمة ، ولديهم عندئذ حجتهم المقنعة
الجاهزة .. انهم يقولون : لقد جربت الأمة الانتفاض الشعبى ،
والمطالبة بالحلول الكاملة .. بالعدالة الكاملة أو الحق الكامل ..
فماذا وجدت .. ويمضون فى حجتهم ليكشفوا أن الأمور زادت
سوءا وان ما أريد بالأمة من خير قد انقلب الى شر . وهم عندئذ
لا يطرحون قضية تجديد الفكر الثورى وتجدد الثورة لكى يداؤوا
به أوجه القصور فى مسيرة الأمة ، بل يؤثرون أن يقفزوا فوق بعض
مواطن الواقع الى مواقع أخرى يرونها أجدر بالاصلاح والتقويم .

وحين دخل الاحتلال الانجليزى مصر ، أورق هذا الفكر ونما
وازدهر . واتخذ له معارك جانبية ، مثل اصلاح التعليم فى المدارس
المدنية والأزهر ، وتحرير المرأة ، وإنشاء المصارف المصرية ،
وحماية ملكية الأرض الزراعية للمصريين ، وتعميم الجمعيات

التعاونية على أسس لبرالية ، ونشر الوعي العلمى ، وغير ذلك من أوجه الإصلاح ، ولكنهم لم يتناولوا القضايا الرئيسية ، مثل قضية الاحتلال الناشب أظفاره فى البلاد ، أو الدستور المفتقد المنظم لعلاقة الحاكـم والمحكوم ..

ولقد نشأ الفكر الاصلاحى المصرى فى احضان طبقة الأعيان المصريين ، وحول مراكز تجمعها .. ولقد مرت طبقة الأعيان المصريين بمرحلتين . المرحلة الأولى مرحلة النشأة حين تجمعت فى الحزب الوطنى الأول بخلوان فى عام ١٨٨١ ، وشارك الجيش فى رفع شعار « مصر للمصريين » . وكانت تقصد عندئذ - كما اسلفنا - أن يؤول اليها حكم مصر فى الوظائف الكبرى دون الخديوية ورئاسة الوزراء ، وان تجلى أبناء الترك والشركس والالبان عن هذه الوظائف . وكانت هذه الطبقة عندئذ لا تحظى بقسط من التعليم ، وان اتقنت بعض المناورة السياسية والبرلمانية .. وكان عمرها عشرين من السنين على الأكثر ، انتقل فيه أفرادها من مناصب العمـد لقراهم الصغيرة الى مناصب مديرى الاقاليم ومفتشـيها ، ومن ملكية بضعة أفدنة الى ملكية المئات والآلاف منها .

بدأت فئة الأعيان فى الظهور فى عهد سعيد ، ولكن حكم اسماعيل هو الذى أتاح لها ماوصلت اليه من ثراء ونفوذ ، ومن الغريب أن أول من فتح لها السبيل هو اسماعيل صديق المفتش أخو اسماعيل فى الرضاع ، وعونه الأول على الطفيان ثم كبش فدائه حين اذلهمت عليه الأمور ، اذ قتله اسماعيل وأخفى جثته فى سراياه بالزمالك التى هى فندق عمر الخيام الآن .

كان اسماعيل صديق من أصل مصرى ، أكرمه الله بأن جعل أمه مرضعة لاسماعيل ، وحين صار اسماعيل حاكما على مصر صار مفتشا لعموم الأقاليم ، فاستغل هذه المكانة فى الاثراء والكسب ،

ويحدثنا أمين باشا سامى فى كتابه تقويم النيل « ان عقارات المفتش عند » نفيه « كانت نيفا وثلاثين ألف فدان ، وثلاثة قصور فى القاهرة وقصرا على ضفاف المحمودية وجواهر قيمتها ستمائة ألف جنيه انجليزى وأسهما وسندات بنصف مليون من الجنيهات وأخيرا سبعمائة جارية شركسية بيضاء وخمسة مسكرة وسمرات خاتنة وحشية ذات عيون بقرية وبرونزية موشومة ذات نهود سفرجلية وسودانية فحماء متقدة الدم الهائج » .

وباع المفتش الوظائف لابناء وطنه من المصريين - فكان ثمن وظيفة المدير من الفين الى ثلاثة آلاف جنيه ، وثمان وظيفة وكيل المديرية من ألف الى ألف وخمسمائة جنيه ، وثمان وظيفة ناظر قسم من خمسمائة الى سبعمائة جنيه ، وتكالب الأعيان على شراء الوظائف ، وبعد أن كان اسماعيل قد قرر فى أمر عال أن تكون النسبة فى الوظائف الادارية العالية الثلثين للترك والثلث من « أولاد العرب » أو المصريين ، وصلت النسبة بعد بضعة أعوام الى أن صار معظم كبار الموظفين من المصريين ، حتى قال اسماعيل باشا بعد انصراف كبار الموظفين من التشريفه فى عام ١٨٦٩ أنه مسرور لمشاهدة معظم المديرين من ذوى اللون الاسمر البحت .

وسقط اسماعيل المفتش عام ١٨٧٦ ، وانحسر النفوذ المصرى قليلا ، ورفع النفوذ التركى رأسه ، ولكن طبقة الأعيان كانت قد تكونت وتآزرت على كل حال ، ويحدثنا أمين سامى أيضا أن بعض هؤلاء المديرين والعمد ونظار الأقسام المصريين كانوا لا يجيدون القراءة والكتابة . ولكنهم كانوا قد كونوا ثروات طائلة بالنسبة لمواطنيهم ، فبدأوا يتطلعون الى السلطة ، وراهنوا على جواد الجيش والثورة العربية ، ولكنهم مالبثوا أن توقفوا فى منتصف الطريق ، وسارع معظمهم الى الانضمام للخديو ، وكان زعيمهم محمد سلطان القائد الأول للحزب الوطنى ومفتش الوجه القبلى ورئيس مجلس

النواب هو أول الضاريين للثورة ، حتى قال عنه محمد عبده
فى تاريخه ، مبتدئاً حديثه بهذه اللهجة الساخرة .

« هذا الهمام الوطنى الذى أوقد نار الفتنة فى البلاد ، وجمع
لها وقودها وحطبها حتى امتد لهيبها وعم جميع الإنحاء ، ثم هرب
من طريقها عندما خاف أن يلذعه لسان لهيبها » . جاء فى آخر
الأمر نائباً عن الحضرة الخديوية فى حبس كثير من الناس ولم يفرق
بين الأبرياء وغيرهم . ونال المكافأة من الجناب العالى بالاحسان
جزاء إيقاد الفتنة، ثم الهرب منها » .

كان محمد سلطان اذن هو الممثل الأول للطبقة المذكورة فى
إبان نشوتها، يوم كان كثير من أفرادها لا يعرفون القراءة والكتابة،
وكان فكر هذه الطبقة انتهازياً يطمح الى تولى المناصب سواء كان
ذلك بتقديم الرشوة الى اسماعيل المفتش الآب الروحى للطبقة ، أو
بالمساومة على الحركة الوطنية . ثم خلف هؤلاء السادة خلف ،
دخلوا المدارس ، وحذقوا الوانا من الجدل والكلام ، وسافر بعضهم
الى أوربا ، فنال حظاً من المعرفة والتفتح ، ثم عادوا الى مصر
ليشغلوا جملة من الوظائف العالية فى نطاق السيطرة الانجليزية .
فهم يرون انفسهم بمجد الثراء ومجد الوظيفة اسمى مقاماً من
غيرهم من المصريين ، ويطمحون الى مصالوة الترك ، ولكنهم
لتحضرهم وعلمهم أكثر مقدرة على الابانة عن انفسهم من آبائهم
واسلافهم .

هذا الجيل من الأعيان هو الذى أنشأ حزب الأمة وجريدته
فى عام ١٩٠٧ ، وكان المبعث لمثليه أحمد لطفى السيد الذى عرف
فيما بعد بأستاذ الجيل . وكان صاحب المزاج الهادئ ، والفكر
المتأمل الشيخ محمد عبده هو أباهم الروحى ، حتى قال كرومر
عنهم فى تقريره السنوى عام ١٩٠٦ ، وهم لم يعلنوا عن انفسهم

بعد ، فى مجال المقارنة بينهم وبين اتباع مصطفى كامل أو الحزب الوطنى .

« فئة صغيرة من المصريين الذين لم يسمع غير القليل عنهم ، فرجال هذه الفئة يستحقون ذلك التلقب بقدر ما يستحقه الذين يختلفون عنهم فى آرائهم وافعالهم ، وهم رجال الحزب الذين أسميهم حبا فى الاختصار اتباع المرحوم المفتى السابق الشيخ محمد عبده » .

ولا نجد فى بيان افتتاحية العدد الأول من الجريدة أى ذكر للاستقلال أو حقوق الأمة الشرعية ، فى الوقت الذى كان فيه مصطفى كامل ينشد خطبه الشامية المتانة ، ويجعل كلمتى مصر والاستقلال واسطة العقد فيها ، بل تختفى الجريدة وراء تعبيرات اصلاحية غامضة مثل الاعتدال الصريح . . و « ارشاد الأمة المصرية الى أسباب الرقى الصحيح والحض على الأخذ بها ، وإخلاص النصيح للحكومة والأمة بتبين ما هو خير وأولى ، ثم تنصح بتولية الحكم لجماعة أولى الراى » وهم الذين نبهوا ذكرا بالمنصب أو العلم أو الفضل . .

كانت آراء لطفى السيد الفكرية تقوم على ثلاثة محاور ، أولها إيمانه بالتطور إيمانا أقرب الى اليقين الدينى فهو يؤمن بأن اليوم خير من الأمس ، وأن غدا سيكون أفضل من اليوم ، وتلك مقولة أولى اقتبسها من فلاسفة التطور الانجليز . وبخاصة « سبنسر » ولكنه لا يفكر كيف ان الانسان هو قائد التطور ، فنحن قد تؤمن بحتمية التطور فى البيولوجيا حين تؤمن أن الكائنات الحية تستبقى الأحسن أو الاقدر على الحياة ومجادة الطبيعة . ولكن التطور الانسانى لابد لدفعه من الانسان الموجه له ، ومن تهيئة الظروف المعينة على التطور ، وقد انعكس ايمان لطفى السيد بالتطور فى نظرته الى الاستقلال ، فهو يرى ان دون الاستقلال عقبات يجب ان

تجتازها الأمة بتطور تدريجي ، فلا استقلال عنده بدون نشر التعليم واصلاح المروج من عاداتنا ومعتقداتنا .. بل يجب ان نلشع فى هذه الخطوات ونتمها قبل ان نطمح الى الاستقلال .

والمحور الثانى : من افكار لطفى السيد هو كراهيته لاستعمال القوة فى اى امر من الامور ، فمن يظن ان استعمال القوة هو طريق الرقى فهذا طريق خطر السلوك عقيم النتيجة ، فان الاكلام مجمعة فى مصر على ان السلام هو الطريق الوحيد ..

أما المحور الثالث .. فهو ايمانه بالمنفعة كفلسفة عملية ، فهو يرى ألا يشغل نفسه بأوهام الخيال والطموح ، أو بالغايات البعيدة الغائمة . بل يقيس الأمور بنفعها ، وتلك نزعة فى الفلسفة الانجليزية أيضا تقترب الى حد كبير من النزعة البراجماتية فى الفلسفة الأمريكية ، وكلتاها فلسفتان ماديتان لا عقليتان ، تنبعان من ملاحظة الواقع دون طموح الى تغييره ..

ونعله قد طبق تلك الفلسفة أصدق تطبيق فى مقالته فى وداع كرومر ، اذ جعل جهده أن يحصى ما له وما عليه ، وانتهى بأن كرومر بمقياس بنى وطنه الانجليز ، مصالح وطنى غيور على مصالح وطنه ، وكان الأمر مضحكا أن يتحدث بهذه اللهجة ، فان القائد الانجليزى الذى احتل مصر كذلك كان بلا شك وطنيا غيورا فى نظر دهماء لندن وساداتها .. ولكن ماذا يفعل وقد شارك حزبه بقيادة «محمود باشا سليمان» فى وداع كرومر ، وسفح الدموع حزنا على فراقه الأليم !

ما موقوفهم ؟ .. ؟

لم يكن لطفى السيد هو المفكر الوحيد فى حزب الأمة . ولم يكن حزب الأمة هو التجمع الوحيد لطبقة الاعيان ، فقد تجمعوا بعد ذلك فى حزب الاحرار الدستوريين ، الذى انتج جماعة من المفكرين ، منهم محمد حسين هيكل ، قريب لطفى السيد وتلميذه

الاثير ، ومنهم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر ومنهم طه حسين في أيامه الأولى قبل انضمامه للوفد .

ولقد كان لطفى السيد أيضا ممن أسهموا في انشاء الحزب الجديد ليقف في مواجهة الوفد وازاده ، وكأنه كان مقدرا على هذا الرجل أن يقف في مواجهة التيارات الوطنية ، فهو ينشئ حزب الأمة في مواجهة مصطفى كامل وحزبه الوطنى ، وينضم الى الأحرار الدستوريين ويؤازرهم ليواجهوا شعبية سعد زغلول وزعامته ، ومما يذكره المؤرخون أن لطفى السيد بهوايته اللغوية - ككثير غير راض عن اسم الحزب ، فهو يرى تسميته بالحريين الدستوريين ، لا الأحرار الدستوريين ، لانه يرى أن كلمة « الحريين » هي الترجمة الأولى لكلمة « ليبرالى » أو المذهب « الليبرالى » .

كانت الليبرالية هي أوضح معالم فكر لطفى السيد وتلاميذه في المرحلة التالية ، مرحلة طبقة الاعيان المثقفة في آخر أيامها . ويلخصه لطفى السيد في « ألا يكون للحكومة سلطان الا على ما ولتها الضرورة اباه وهو ثلاث ولايات : ولاية البوليس وولاية القضاء ، وولاية الدفاع عن الوطن » ، فهم يؤمنون اذن بقداسة الحرية الفردية ، ويقودهم هذا الايمان الى الايمان بضرورة الحكم النيابى والدستورى ، ولذلك فقد ولد في أحضانهم أول دستور مصرى عام ١٩٢٣ .

ولكن هذا الايمان لم يبلغ بهم حد التضحية بمكانتهم الاسرية والمالية ، اذ كانوا يظنون أنفسهم سادة الأمة كما قال حسن باشا عبد الرازق في خطاب تشكيل حزب الأمة ، فاذا بالأمة لا تنتخبهم لولايتها ، وانقلب هؤلاء الحريون أو الأحرار سيفاً مصلتا على الحرية التى نادوا بها وجعلوها شعارا لهم ، فقال عبد العزيز فهمى أحد اقطابهم عن الدستور الذى شارك في صياغته أنه ثوب فضفاض

لا يصلح لمصر ، وحكم محمد محمود البلاد بلا دستور وأطلق على نفسه اسم اليد الحديدية ، وخرج من بين صفوف الدستوريين حليفهم اسماعيل صدقي ، واستوزر لطفى السيد لمحمد محمود واسماعيل صدقي كلاهما ، وهما يحكمان بلا دستور أو بتزييف الانتخابات وضرب الشعب »

لقد كان سعد زغلول أعلم بالدستوريين من أنفسهم ، فقد كان بعضهم معه في مفاوضاته مع « ملنر » بلندن عام ١٩٢١ ، ثم انشقوا عنه . واقتنعوا أحد أعضاء الحزب الوطنى القدامى بالانضمام اليهم ستراً لوجودهم ، فكتب زغلول الى أحد خلائه بالقاهرة :

« لابد أن تعلموا أن اسم «مكبائى بك» كان بين العائدين ، ولكنه لم يعد ، وانما كتبوا اسمه مع اسمائهم تفخيماً لشانهم ولكى يعتزوا بإضافة لون آخر الى لونهم ، حتى لا يقال ان حزب الأمة عاد الى بدايته ، وانتهى الى غايته . . ان الله لا يصلح عمل المفسدين » . .

تقييم

ان اسوأ ما فى التوسط انه يقود الى التنازل ، والتنازل يقود الى المساومة ، ثم تعمى بعده العين عن الرؤية الصحيحة للأمور . وقد كانت هذه الطبقة من الأعيان بمدارسها الفكرية المختلفة داعية الى التوسط ، وكانت أجنحتها الفكرية بلا شك أسلم قصدا وأقوم نهجا من أجنحتها السياسية ، فلأجنتها السياسية أخطاؤها التى تصل الى حد الانحدار الوطنى ، ولكن أجنحتها الفكرية قد خاضت كثيرا من المعارك الموفقة التى أسهمت فى تقدم الوطن ، مثل معركة التعليم واصلاحه التى خاضها لطفى السيد ومحمد عبده وسعد زغلول حين كان قريبا منهم ، ومثل معركة تحرير المرأة التى خاضها قاسم أمين ، اذ قرأ على محمد عبده ولطفى السيد فصولا من كتابه فى جنيف عام ١٨٩٧ قل

أن ينشره على الناس ، وأمدّه محمد عبده بالحجج الدينية ، ومثل معركة بنك مصر التي خاضها طلعت حرب ، وكان من المساهمين الأول في جريدة « الجريدة » حين إصدارها . فضلا عن دور محمد حسين هيكل في الأدب وبخاصة بكتبه المتقدمة مثل « ثورة الأدب » « وتراجم شرقية وغربية » .

وقد كان وجود هؤلاء المفكرين يطرح سؤالاً ويجيب عنه في الوقت ذاته ، هذا السؤال هو هل تنهج مصر في تقديمها النهج الثوري أو النهج الاصلاحى ، أما هؤلاء المفكرون فقد أثبتوا باجابتهم أن أقصى ما يستطيع أن يصل اليه النهج الاصلاحى هو استقلال مقيد ودستور هو ثوب فضفاض واقتصاد متخلف وفكر لا ينبع من الواقع ولكنه ينبع من التوفيق بين الفكر الأوروبى والطموح الشخصى لمن استعاروا هذا الفكر ..

فكر الطلبة

٧



- ممثل للطلبة في مجلس النواب !
- وزارة المعارف تستقم من الطلبة !
- الفقر الفكرى فى الأحزاب المصرية !

يذكر الذاكرون أن سعد زغلول خصص مقعدا في مجلس النواب الأول لمصر في عام ١٩٢٤ للطلبة ، ورشح له أحد زعمائهم ، وظل الوفد يرشح هذا الزعيم الطلابي حتى بعد أن غدا شيخا عجوزا ، ويقدمه مندوبا عن الطلاب طوال سنوات الحكم الدستوري وحياة الوفد بهذا التصرف مجرد مرحب بدون الشباب في الحركة الوطنية ، بل كان مسجلا لحقيقة هامة ، وهي أن الحركة الوطنية في جانبها الثوري كانت تقوم على أكتاف الطلبة ، وتنبع من فكرهم .

وليس هذا غريبا في المجتمعات التي تشيع فيها الأمية ، إذ يكون الطلبة هم الطليعة الواعية المتطلعة ، التي تكاد تنبخر في الوقت ذاته من التدبير لعموم الحياة والخضوع لارتباطاتها ، فتتفرغ بكل ما في نفوسها من حماسة وهمة لقضية الوطن ، وليس هذا غريبا في المجتمعات التي لم يتشكل بناؤها الطبقي بعد ، فهي في تخلق مستمر ، إذ تولد طبقة من أصلا طبقة ، وينقضي وقت طويل قبل أن ترسى هذه الطبقة الجديدة مفاهيمها ومثلها العليا . .

ويقول بعض الدارسين أن نشوء الطلبة كقوة ثورية علامة مميزة في المجتمعات التي لم تتقدم آليا وصناعيا بعد ، بحيث تتحدد المواقف الاجتماعية طبقا للعلاقة مع أدوات الانتاج ملكية لها أو خضوعا لوطاتها ، فمن يملك أدوات الانتاج هم سادة المجتمع والمشرعون له وممثلوه وأهل الرأي فيه ، ومن يخضعون لها هم خدمه وعبيده ، ولكن ما نراه الآن في أوروبا الغربية ، وهي قمة التقسيم الصناعي في العالم يوحي لنا بأن للطلبة دورا واضحا كطليعة ثورية سواء أكان المجتمع متقدما أم متخلفا ، وإلى هذا المعنى فطن « هروبرت ماركيز » أحد كبار فلاسفة عصرنا هذا ، حين أدرك أن الطبقة العاملة الصناعية في المجتمعات المتقدمة جديدة بأن تنحاز إلى القوى

الجامعة في المجتمع حين تسلو أجورها ، وتنظم ظروف حياتها ،
فلا يظل عندئذ في الجناح الثورى من المجتمع سوى الطلبة . .

ولا شك أن النظرة في كفاح مصر الوطنى ، منذ أواخر القرن
التاسع عشر ، تكشف لنا عن دور الطلبة وفكرهم ، بل تجعله مناظرا
قويا لفكر الأعيان . ففي الوقت الذى كان فيه الأعيان والعقلاء
يتجمعون ليحموا مصالحهم ويثبتوا وجودهم بين قوتى الاحتلال
والقصر ، كان الطلبة يتجمعون أيضا تحت راية الوطنية ، ولا شك
أن ممثلهم الأول كان هو مصطفى كامل فى الدور الأول من كفاحه
الوطنى .

جمع مصطفى كامل - وهو طالب فى المدرسة الخديوية -
سبعين من زملائه فى جمعية سماها « جمعية الصليبية الأدبية » ،
وكانوا يجتمعون فى هذه الجمعية ليخطبوا ويلقوا القصائد ، وقد
كان مصطفى كامل يحاول الشعر ، وكانت له صداقة عميقة بشاعر
مصر الكبير أحمد شوقي ، وقد ظل مصطفى كامل ، حتى بعد تخرجه
وتكوينه للحزب الوطنى ، حريصا على تجميع الطلبة حوله ، وكان
المظهر الواضح لهذا التجمع هو تكوين نادى المدارس العليا فى عام
١٩٠٥ ، وستجد فى هذا النادى جماعة ممن قدر لهم أن يؤدوا دورا
فى تاريخ مصر ، وكانوا عندئذ مازالوا طلابا فى المدارس العليا .

ومن البديهي أن يكون الفكر الطلابى خطابيا حماسيا ، وكذلك
كان فكر مصطفى كامل ، ولكنه بلا شك فكر قد صادف أوانه ،
فقد كانت الأمة واقعة فى هوة اليأس ، ولابد عندئذ من الأناشيد
أو الكلمات المنغمة لكى تستعيد ثقها بنفسها ، ويكفى
مصطفى فخرا أنه أعاد كلمات مثل : الوطنية والاستقلال والحرية ،
الى ضمائر الناس وأذهانهم . كما أن مما يزكى دوره فى الحياة
السياسية المصرية أن فكره كان قادرا على التطور والحركة والاتساع
طيلة حياته القصيرة ، بحيث بدأ حياته زعيما طلابيا ملتهب العاطفة

يلجأ للخيال والتشبيه والكلمات الضخمة ، وأنهاها مقتربا جد
«الاقتراب من الوعي الصحيح للأمور ، ومنظما موهوبا لحزب وجريدة
ومدارس تنشر التعليم ، كما تلقن الوطنية » .

وينتقل «مصطفى كامل» في حركته السياسية خلال عشر سنوات
من الاعتماد على الحديو أو على العثمانيين أو على الفرنسيين الى
الاعتماد على مصر ذاتها ، كما تنتقل لهجته من مجرد الشاعرية الى
محاولة التعمق في الأمور ، والحديث باللهجة السياسية المسئولة ،
فبينما نراه يخطب في عام ١٨٩٦ في الاسكندرية قائلا في صورة
شعرية بليغة :

« ولكن الاتحبون مصر ، التي خيم عليها الشقاء ، وحل بها البلاء
وسبقته الأمم وأصبحت تعد في مصاف الشعوب القاصرة ، تناديكم
وانتم حولها : الا فانصروني يا أعز البنين .. الا فارفعوا شأنى بين
الأمم واجعلوا لى مكانا فسيحا بين الشعوب المتقدمة الحية .. أجل
.. أجل .. تحبوننا ويجب عليكم أن تحبوها وتحنوا عليها كما
يحنو المرء على أمه الشفوق اذا اعتلت ويسعى الى خفتها » .

نجد مصطفى كامل بعد السنوات العشر يخطب خطبة أخرى
بالاسكندرية ، هى فى الواقع بيان سياسى واف مرتب ، يشرح فيه
اتجاهه ، ويدفع عن نفسه اتهامات خصومه .
يقول ردا على أنصار المهادنة والحلول الوسط أو تيار
حزب الأمة :

« يتوهم أنصار سياسة المغالطة .. انهم مهرة قادرون وسياسيون
محنكون ، فلذلك هم يريدون أن يخدعوا الدولة الانجليزية ويغلبوها
بقوة الدهاء .. هم يقولون : لنؤجل طلب الاستقلال ولنطالب
الانجليز بالاصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابى ونشر
التعليم ، حتى اذا صرنا أصحاب الحول والطول فى البلاد .. قلنا لهم
« انجلوا عنا » فلا يستطيعون الا أن ينجلوا خاضعين مهتلين » .

اللهم انى اعترف بانى لست من المهرة فى السياسة حتى
أدبر مثل هذا التدبير .. وأصرح بأنه لم يخطر لى لحظة واحدة على
بال بانى قادر على أن أصرع السياسة الانجليزية بمثل هذه المهارة
الفائقة ، كما انى مع عداوتى الأكيدة للاحتلال .. لا أرى الانجليز قد
تحولوا بسرعة البرق أطفالا صغارا حتى تدخل عليهم هذه اللعبة
المضحكة ..

ويناقش « مصطفى كامل » بعد ذلك حجج أنصار الاحتلال ،
الذين كانوا يزعمون أن الاحتلال قد نظم الرى والصرف والتعليم
والصحة ، وهو يعتمد فى مناقشاته على الأرقام ليكشف زيف هؤلاء
المزيفين ، ثم ينتقل للرد على حجج خصومه ، فيدافع عن حربه معلما
استقلاله عن الولاة العثمانى وترجييه بالعناصر غير المسلمة ، ثم
يقول فى عبارة قاطعة :

« انما نعلن للملاّ كله .. أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول
والحكومات والملوك والأمراء »
بعد مصطفى :

لم يكن وراء الحزب الوطنى عند تشكيله ، مثل ما كان وراء حزب
الأمة من المثقفين ذوى النزعة العصرية ، بل لعله استهوى كتاب
النزعة العثمانية مثل «عبدالعزیز جاویش» وغيره ، وواجه الحزب بعد
موت مصطفى ظروفًا شاقة ، اذ تحالفت عليه قوى الاحتلال وأسراى
حتى استطاعت أن تخرج «محمد فريد» من مصر ، وحتى استطاعت
أن تصوّره حزبا حريصا على تفتيت وحدة الأمة ، أو خالقا لمناسخ
يساعد عليها على أقل تقدير ، وبخاصة بعد أن أصبح عبد العزیز
جاویش هو أشيع كتابه ذكرا ، ولقد انصرف شبابه الجديد من بعد
الى مسالك أخرى ، تتباين بين الارهاب الفردى كما نجد فى قتل
«ابراهيم الوردانى» لبطرس غالى .. أو الانضمام الى الأحزاب الأخرى ،
أو الانصراف بعد تخرجهم الى الوظائف العامة مع بقية كائنة فى

أنفسهم من النار القديمة المتقدة ، كما فعل مصطفى النحاس وحافظ عفيفى المذنان دخلا الوفد ممثلين للحزب الوطنى القديم .

وعلى أيا حال . فلقد كان الحزب الوطنى فى سنواته الأولى ، هو حزب الشباب والطلبة ، والى هذا المعنى أشار الحوار الذى دار بين السير « ريجنالد وينجت » المندوب السامى البريطانى وأحد الأقطار الثلاثة الذين ذهبوا اليه غداة الهدنة فى عام ١٩١٩ للمطالبة بالاستقلال .

قال « وينجت » ان على المصريين ألا يتعجلوا وأن يكونوا متبصرين فى سلوكهم ، لانه قبل الحرب كثيرا ماحصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطنى ، وكان ذلك بلا تعقل ولا روية فأخرت مصر ولم تنفعها .

وأجابه « عبد العزيز فهمى » أحد الأقطاب الثلاثة : ان الحزب الوطنى كان يطلب الاستقلال ، وكل البلد كانت تطلب الاستقلال وغاية الأمر أن طريقة الطلب التى سار عليها الحزب الوطنى ربما كان فيها ما يؤخذ عليها ، وذلك راجع الى طبيعة الشبان فى كل جهة .

وتم نفي الأقطاب الثلاثة كما نعلم . ولم يكن يدور بخلد أحد منهم أن مصر ستتحرك عن بكرة أبيها احتجاجا على هذا النفي ، حتى لقد أصيب معظم أعضاء الوفد بالدهشة حين نمت اليهم أنباء ثورة مارس ١٩١٩ ، وحتى كان بعض أعضاء الوفد المقيمين بمصر ينصحون الثائرين بالهدوء والحكمة . لقد كانت الثورة تفوق كل توقع من تصدوا لقيادتها ، ورغم أن الثورة استشرت فى كل مكان من مصر ، الا أن من أيقظ خامدها ، وبعث روح مصر من سباتها . كانوا هم الطلبة . . .

بدأت أحداث الثورة باضراب طلبة الحقوق فى ٩ مارس ١٩١٩ ، ثم انطلاقيهم فى مظاهرة ضمت اليهم طلاب المدارس العليا الأخرى ،

وفى اليوم التالى انضم اليهم الأزهريون وطلاب المدارس الثانوية ..

ثم اشتعلت الثورة ..

ومنذ ذلك اليوم .. أصبح الطلبة قوة سياسية وظاهرة نجدها فى

حركة جمع التوكيلات للوفد ، وفى نشاط الوفد السرى الذى كان ينظمه عبد الرحمن فهمى سكرتير الوفد ، سواء أكان اغتيل أم ارهابا للخصوم من المصريين والأجانب ، ثم فى الاحتجاج على حكومات الأقليات والتظاهر ضدها حتى تسقط ، ولقد سقط من الطلبة عديد من الشهداء والمكافحين ، وتآلفت منهم أسماء ذكية كان منها عبد الحکم الجراحى ، شهيداء كوبرى عباس وغيرهم .

يحدثنا « فكرى أباطة » فى مقال خفيف الظل بالأهرام فى عام ١٩٢٢ عن هذه المعركة الدائرة بين وزارة المعارف والطلبة ، حين تنتهز وزارة المعارف من الامتحانات العامة فرصة للتكيد بالطلبة ، وجعلهم يعضون بنان الندم على ما ضيعوه من أيام فى التظاهر للحركة الوطنية ، فيقول :

« ان وزارة المعارف قدمت لهم أوراق الأسئلة ، وقد كتب على رأسها بالخط الغليظ « ولكم فى القصص حياة يا أولى الألباب .. فكما انكم كنتم تصيحون بأعلى أصواتكم قائلين « لتسقط الوزارة اذن هى الآن تصيح بأعلى صوتها قائلة : ليسقط الطلبة » .

ماذا كانوا يريدون ؟

هل يمكن اذن أن نعد تيار الطلبة المتجدد فى الحركة الوطنية قوة مستقلة ؟

وهل كان لهم فكر سياسى ؟

هذان سؤالان يطرحان حين نريد أن نحلل هذه الظاهرة ..
وواقع الأمر اننا لا نستطيع أن نعد مد تيار الطلبة قوة مستقلة بعيدة عن الأحزاب السياسية ، لأن الأحزاب السياسية من جانبها

كانت تبذل كل جهودها للاستحواذ على هذه القوة وتنظيمها واطلاقها ، متذرة في ذلك برفع شعارات الوطنية الجارفة التي يتفاوت حظها منها بين الاقتناع والمداورة .

كان الوفد بقيادة سعد زغلول - حريصا على احتواء الطلبة ، وقد خصص سعد للجنة التنفيذية الطبقة الأولى من بيته ليحتمعوا فيها ، وقد فطنت أحزاب الأقليات الى هذا الأمر . فحاولت هي الأخرى احتواء الطلبة بوسائل كثيرة وصلت الى حد الرشوة والافساد .

وواقع الأمر كذلك . . . اننا لانستطيع أن نقول انه كانت للطلبة أسس فكرية سياسية محددة ، فقد كانت هتافاتهم وشعاراتهم التي يستشهدون من أجلها هي « الاستقلال التام » أو الموت الزؤام » في مرحلة طلب الاستقلال ، ثم الصراخ بالدستور في الأزمات الدستورية . . . وليس الطلبة في ذلك بملمومين ، فقد كان الفكر السياسى الاجتماعى للأحزاب المصرية في جملتها متخلفا الى حد مزعج ، ولندكر عندئذ أن الوفد لم يضيف كلمة « العدالة الاجتماعية » الى شعاراته الا في فترة متأخرة جدا قبل ١٩٥٢ وقبل حل الوفد بأعوام قليلة ، وقد أضافها عندئذ حرصا من قاداته على المناورة السياسية ، اذ كانت القيادة عندئذ قد وقعت في قبضة الأعيان وقوعا شبه تام ، وكان هناك تناقض واضح بين هذه الدعوى وواقع الأمر ، وكاد هذا التناقض يودى بكيان الوفد .

بل ان الواقع أيضا اننا لا نكاد نجد للأحزاب السياسية في التاريخ المصرى فكرا سياسيا اجتماعيا بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فرغم أن حزب الأمة ينشأ في حضان المفكرين الا اننا نجد أن فكرهم تعميمى أحيانا ، وقتى مرحلى أحيانا أخرى ، ولن نستطيع أن ننسبهم أو ننسب الأحرار الدستوريين الخارجين من معطفهم الى نظرية اجتماعية بعينها ، الا ما يزعمونه من الليبرالية أو التمسك بالدستور ، أما الوفد ، فقد كان سعد زغلول منصرفا تمام الانصراف عن القضية

الاجتماعية ، فلم تؤهله ثقافته الأولى التي حصلها في الأزهر والمحاماة ، وصحبته الأولى من الأفغانى الى محمد عبده الى حزب الأمة ، لم تؤهله هذه الثقافة لكي يفتن الى أن للحرية والاستقلال جانباً اجتماعياً ، كما لم تمهله سنوات قيادته القصيرة للحركة الوطنية مع ما ازدحمت به هذه السنوات من أحداث لأن يتبصر في الواقع الاقتصادي والاجتماعي لمصر .

ان سعد زغلول يفاجأ في فترة حكمه القصيرة بالاضطرابات العمالية ، فيقمعها بشدة ، ثم يوغر الى سكرتير الوفد « عبدالرحمن فهمي » بلم شمل الطوائف العمالية في نقابات خاضعة للوفد تأتمر بأمره وتسير حسب ارادته ، ولم يكن لهذه النقابات دور واضح في تفجير المشكلة الاجتماعية في مصر .

بل ان سعد زغلول استعمل بعض وسائل القمع ضد من كونوا أحزاباً وتكتلات شيوعية في مصر في الفترة ما بين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٤ ، ولكننا لا نريد أن نغلو في مؤاخذته على هذه التهمة ، بل لا نريد أن نؤاخذه اطلاقاً ، فقد كانت معظم هذه القيادات من يهود فلسطين ، وكانت تتستر برداء الشيوعية اخفاء لحقيقتها الصهيونية ، فضلاً عن احتمائها بمظلة الامتيازات الأجنبية ، ويكفي أنه كان بين الأسماء الالامعة في هذه الحركات شارلوت وجوزيف روزنتال ، وشالوم بولاك ، وهارون واينبرج ، وريدل هارسليك ، وليون الكونين ، وقسطنطين ثايس وغيرهم .

تقييم :

والآن . . ألم يكن في مصر حركة اجتماعية ناضجة حين أدى الطلبة الجانب السياسي من الحركة الثورية . .

كان هناك فكر ينمو متمهلاً متخبطاً متردداً خارج الأحزاب التقليدية ، وبخاصة بعد معاهدة ١٩٣٦ ، اذ تصور كثير من المصريين

أن معركة الاستقلال قد انتهت وأن الدور الآن لمعركة العدالة الاجتماعية ، وبدأت الكلمات الثائرة تتردد في الصحف ، حتى زادت وعلت نبرتها في سنوات ما بعد الحرب ، وكانت ممهدة للتغيرات الاجتماعية الكبرى بعد عام ١٩٥٢ .



بين السكسون واللاتين!

٨



- ♦ لماذا اتجه الفكر المصرى الى الغرب ؟
- ♦ شعر مصطفى كامل فى مدح فرنسا !
- ♦ مشية الغرب ومشية الطاووس !

- ١ -

اختلف الرائدان الكبيران للتجديد في الفكر المصري الحديث :
أى الثقافتين أجدر بأن تقتبس منها الثقافة المصرية الناشئة ، وتحلو
حلوها ، وتمد من آفاقها لتصلها الآفاق الغربية ، أهى الثقافة
السكسونية التى أبدعها أصحاب اللغة الانجليزية ، أم هى الثقافة
اللاتينية التى أبدعها أصحاب اللغة الفرنسية ؟

كان هذا هو محور المناقشة الأدبية التى دارت بين عباس
محمود العقاد ، وطه حسين فى عشرينات هذا القرن . وتحمس
العقاد للثقافة السكسونية ، التى عرف من خلال لغتها الانجليزية
آفاق الفكر الحديث والقديم ، فأسهب فى بيان فضلها وتفوقها بينما
تحمس طه حسين للثقافة اللاتينية ، التى أطل من خلال نافذة لغتها
الفرنسية على الساحة الواسعة للفكر العالمى . وليس المجال هنا
مجال ترجيح رأى أحد من الرائدین الكبیرین ، فاننا الآن نجد أن
هذا الخلاف خلاف جذلى أكثر منه خلافا واقعيا . فاحضارة الغربية
كل متماسك ، والقاربة بين بعض اللاتين وبعض السكسون أقرب
منها بين سكسونى وسكسونى آخر ، أو لاتينى ولاتينى آخر . ونحن
نعلم أن المذهب الأدبى قد يولد فى بلد ما من بلدان أوروبا ، فلا يلبث
أن يجاوزها الى غيرها من البلاد . ونستطيع أن نقول ان الحضارة
الغربية كلها هى وريثة حضارة اليونان والرومان . وانها هى فى
كل تجلياتها سواء أبدعها التيوتون الجرمان أو السكسون البريطان
أو الفرنسميون . اللاتين . بل ان مؤرخا معاصرا يتجلى فى نظريته
امتزاج العلم والالهام مثل أرنولد توينبى ، يرى ان الفكر الروسى
الحديث - والكشيعوى على وجه الأخص - ليس الا جانباً من جوانب

الحضارة الغربية احتج عليها ، ثم ما لبث أن امتزج بها ، وهو يرى أيضاً ان **كارل ماركس الألماني** ليس الا وريثاً لـ **هيجل الألماني** الذي هو وريث بدوره لحركة **الانسانيين الفرنسيين** .

لا تعيننا اذن تفاصيل هذه المناقشة التي شغلت المثقفين في ذلك الزمان ، ولكن يعيننا من أمرها دالتان واضحتان :

أولاهما : ان في مجرد المناقشة في هذا الموضوع اقراراً ضمنياً بأن الثقافة العربية السلفية لا تكفى وحدها لصنع الانسان الجديد ، بل لابد له من البحث عن منابع جديدة ، يفتش عنها في فكر هذه الأمم المتقدمة التي ترتفع الى شمال المتوسط أو تمتد الى أعالي المحيط ، فنحن عندئذ لا نتجه الى فكرنا السلفي القديم وحده ، ولا نتجه الى فكر جيراننا في الشرق القريب أو الشرق البعيد ، ولكننا نتجه الى الغرب لا يمنعنا من التقدير لحضارته ونقافته فصول مأساته السياسية معنا . فقد تحدث **العقاد** عن ثقافة السكسون والمركة حرك الاستقلال محتدمة بيننا وبين الانجليز . . . وقد كان **العقاد** عندئذ الكاتب السياسي الأول لحزب الوفد . ولعل في هذا ما يلفتنا الى سخافة ما يروج له البعض الآن من الانغلاق تحت شعار مقاومة الغزو الثقافي ، فالثقافة لا تغزو ولكنها تبني وتدير ، وقراءة **شيكسبير وكارلايل وهازلت** ، لم تثبت الاحتلال الانجليزي لمصر . بل لعلها ساعدت على زحزحته بما ألهمت في النفوس من معاني الحق والخير والجمال .

ومن الواضح ان هذا المعنى كان هو المحرك لمغامرات العقل المصري خلال القرن التاسع عشر ، فقد سافر **الطهطاوى** الى باريس كما أسلفنا ، وعباد وفي ذهنه آثار **هونتسكيو وجان جاك روسو وفولتير** . وقرأ عرابي كتاباً عن **نابليون** أهده اليه سعيد ، فأيقظ هذا الكتاب في نفسه رؤى من الثورة الفرنسية ، وقد كان **محمد عبده** وسعد **زغلول** حريصين على تعلم اللغة الفرنسية في أواسط

عمر بهما ، وتلقن سلامة موسى من جمعية القايين الانجليز شذرات من الفكر الاشتراكي والعلمى ، ولسوف نجد فى تاريخنا الحديث أثر هذه « التغريبة » أو الرحلة الى الغرب واضحا فى معظم رواد فكرنا ، محمد حسين هيكل يسافر الى فرنسا فيعود ليكتب روايته الرائدة « زينب » متأثرا فيها بالنزعة الرومانسية الفرنسية ، وتوفيق الحكيم يعيش فترة فى باريس ، فيعود لينتقل بسرعة من مسرح الاستعراض الى مسرح الفكر ، وحسين فوزى يعود ليجعل من نفسه رسولا لهذه الحضارة الواسعة ، يطل بمنظارها وهو يقرأ تاريخنا وآدابنا فيكتشف فيه بمناهجه الجديدة جمالا وسحرا جديدين ، أما طه حسين - أستاذ الأساتذة والأب الجليل لكل ما هو جميل ومثمر فى حياتنا الثقافية - فالحديث عن دوره لا يتسع له هذا المجال ، ولكن ملحا من ملامح هذا الدور العظيم انه أنار لأجيال كثيرة بعض مسالك العقل والنوق الأوروبيين .

أما الدلالة الثانية لهذه المناقشة . فهى ان العقل المصرى قد تحدد اتصاله بهذين الرافدين من الحضارة الغربية وحدهما الى مدى طويل فيما بعد ، بعد أن كان اتصاله بهما وحدهما خلال قرن سابق من الزمان ، ورغم أهمية هذين الرافدين الا انهما ليسا وحدهما وجه الفكر الأوروبى ، فهناك الأدب الروسى بمغامراته الروائية والمسرحية العظيمة فى القرن التاسع عشر ، وهناك الفكر الألماني بفلسفته التى أثرت فى مجرى الفكر الانسانى أيضا تأثير بعلمها الكبيرين « كانت » و « هيغل » وبحفنة أخرى من لامعى الاعلام ، وهو مؤثر أيضا بأعلام أدبائه مثل « جوته » و « شيلر » وبأعلام موسيقيه ونقاده ، وهناك أخيرا هذا الفكر الناشئ على الضفة الأخرى للأطلسى فى هذه الأرض الجديدة ، حيث تبرز أسماء بعض الفلاسفة والمربين الروائيين والشعراء . ورغم أن أدب هذه البلاد يكتب باللغة الانجليزية الا انه كان غريبا عن أذهان هؤلاء المفكرين بل ان الولايات المتحدة ذاتها لم تكن تعنى شيئا بالنسبة للمصريين حتى أواسط القرن التاسع

عشر ، ولندكر هنا أن رفاة الطهطاوى حار فى ترجمة اسم هذه البلاد الى العربية ، حتى لتوشك على القول انه لم يكن يعلم بوجودها قبل أن يسافر الى باريس ، فهو يترجم اسمها أحيانا « الايلات المتجمعة » ويكتبه أحيانا أخرى كما يكتب بالفرنسية « اتيابونى » .

لم تدخل الولايات المتحدة الى مجال الاهتمام المصرى الأحيى فكر بعض المصريين فى الاستعانة بها على اخراج الانجليز أو اخراجهم . فقد زار مصر فى عام ١٩٠٤ أحد أعضاء الكونجرس الأمريكىين . فاحتفى به المصريون أيما احتفاء ، ولكنه أخلف ظنونهم حين صرح بموافقته على الاحتلال البريطانى ، وخاب الظن مرة ثانية حين أعلن « ولسون » مبادئه حول حرية تقرير المصير للشعوب بعد الحرب العالمية الأولى . فاستبشر المصريون خيرا ، وهرع قادتهم الى مؤتمر الصلح يستمعون بولسون فاذا به يكذب ظنونهم للمرة الثانية ، ويعترف بالحماية البريطانية لمصر ، ففكر سعد زغلول ورفاقه فى ارسال أحد أعضاء الوفد الى أمريكا للدعاية للقضية المصرية ، وسافر محمد محمود الى هناك ، فنشر بضع مقالات وأدى بعدة تصريحات ، ثم آثر أن يستأجر عضوا من أعضاء الكونجرس للدعاية لمصر وبذل هذا العضو جهده ، ولكن الوفد عرف بعد قليل أن القضية المصرية لاتحل الا على أرض مصر . اذ علمتهم الجماهير أن الكثورة وحدها هى التى تصنع للحق لسانا يتكلم به .

كان السكسون البريطانيان والفرنسيون اللاتين هما أوروبا والغرب بالنسبة للمصريين ، وكانت لندن وباريس هما العاصمتين اللتين تلوحان لعين المصرى حين يستشرف آفاق الشمال ، ولعل ذلك هو الأثر الحضارى لنزاع انجلترا وفرنسا على مصر ، هذا النزاع الذى استمرت فصوله تتوالى مائة عام أو يزيد ، ولم يحسم الا حين اتفق الطرفان على اقتسام الشمال الافريقى فى عام ١٩٠٤ .

القصة المثيرة :

ان الجانب السياسى من النزاع الانجليزى الفرنسى على مصر لقصة مثيرة الحلقات ، وكأنه كان قدرا على هذا البلد ، الوداع المطمئن ان تتأمر عليه أكبر قوتين فى القرن التاسع عشر ، اذ تدرك القوتان ان مصر هى باب امبراطورية الشرق بالنسبة لكل منهما ، وأن هذه البلاد لو تركت وشأنها لاستطاعت بوضعها الجغرافى أن تكون قوة مستقلة ذات ارادة . ومحركة أيضا لقوى أخرى حولها ، وقد عرفت أوروبا ، وبخاصة انجلترا وفرنسا هذا الأمر ، حين وجدت مصر فى عهد «محمد على» ثم نفوذها الى منابع النيل ، وشرقا الى صحارى نجد وشمالا الى جبال طوروس ، وحين وجدنا أن هذا العنصر المصرى يستطيع أن يكون خالقا مبدعا يتبنى تقاليد الحياة الجديدة وأساليبها من حيث ذكاء الفكر وحسن التنظيم ومهارة الصنعة ، ولذلك فقد قادت انجلترا دول أوروبا الأخرى لكبح جماح الحركة المصرية وتقييدها ، وهكذا اتفق «بالمرستون» الانجليزى و«مترنيش» النمساوى مع ممثلى بروسيا وروسيا لأول مرة فى تاريخ أوروبا الاستعمارية على قص أجنحة مصر ، وتولت انجلترا الجانب القدر من المهمة فهدد أسطولها السواحل المصرية لكى يجبر محمد على على الانسحاب من سوريا والحجاز .

أما فرنسا . . فقد كان لها موقف مضحك ، فقد صرحت أكثر من مرة بأنها تؤيد محمد على . . ورفضت أن تشترك مع الدول الأخرى فى هذه المعاهدة المعروفة بمعاهدة لندن ١٨٤٠ ، وحين وقعت المعاهدة أرغمت وأزبدت ، ووعد ملكها لوى فيليب بمعاونة محمد على ، حتى اذا وجد الجد اذا بالفرنسيين يسحبون أسطولهم من البحر المتوسط ، ويتركون محمد على لمصيره المؤلم .

وتجد انجلترا وفرنسا فرصتهما بعد ذلك حين يتخبط اسماعيل فى ديونه ، وتبدأ فصول القصة المؤلمة التى انتهت بهبوط

الأسطول الانجليزى على شواطئ الاسكندرية ، واحتلال الانجليز بعد ذلك لأرض مصر . ومما هو جدير بالذكر ١٠٠ أن الأسطول الانجليزى لم يأت وحده الى شواطئ الاسكندرية ، بل كان بصحبته الأسطول الفرنسى . وكان الصيادين يخشيان أن ينفرد أحدهما بالفريسة ، ففي ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ هبط الأسطولان ثغر الاسكندرية ، ونزل منهما الأميرال الانجليزى « سيهور » والأميرال الفرنسى « كونراد » ، وطلبا بوساطة قنصليهما اقامة وزارة البارودى وإبعاد عرابى عن مصر .

ولكن انجلترا خدعت فرنسا ، وانفردت بالعمل وحدها ، فقد دعت بعد قليل الى مؤتمر أوروبى اشتركت فيه هى وفرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا وإيطاليا ، وأصدر هذا المؤتمر ميثاقا سعى للسخرية « ميثاق النزاهة » وتعهدت فيه هذه الدول ألا يحتل أى منها جزءا من أرض مصر ، وبعد ستة عشر يوما كان الانجليز ينفردون بالعمل ، ويحتلون مصر .

ولم تغفر فرنسا لانجلترا هذه الخدعة ، فطلت مناوئة للاحتلال الانجليزى لمصر طوال العشرين عاما التالية حتى أبرم بينهما الاتفاق الودى . وسلمت انجلترا لفرنسا بحقها فى التهام المغرب العربى كما سلمت فرنسا لانجلترا بحقها فى التهام مصر .

وخلال هذه السنوات العشرين كانت السياسة الفرنسية تقوم على مناوئة انجلترا فى مصر ، فهى تصدر التصريحات التى تندد بالاحتلال ، وتدعو فى المؤتمرات الدولية الى عودة مصر الى الخلافة العثمانية ، وتشكك فى شرعية الوجود البريطانى ، اما فى داخل البلاد فقد كانت تشجع بعض الصحف المصرية على مهاجمة الاحتلال البريطانى ، وكان أبرز هذه الصحف هى صحيفة الأهرام ، التى كان أصحابها يتمتعون بالحماية الفرنسية .

ومن الصفحات الموجعة فى تاريخ مصر ١٠٠ أن تدور لهجة بعض الصحف ، فى ذلك الحين ، حول المفاضلة بين الاحتلالين الانجليزى

والفرنسي ، فقد دأبت « المقطم » في ذلك الوقت دفاعا عن بريطانيا وتعريضا بالفرنسيين أن تشير الى احتلال فرنسا لتونس والجزائر ، وان الاحتلال الانجليزى أهون من غيره ، بل لقد كانت تقول ذلك فعلا ، فكانت الصحف ، الفرنسية النزعة ، ترد عليها بأن الاحتلال الفرنسى أصلح من الاحتلال الانجليزى وأكثر نفعا ، بل لقد وصل الأمر الى المقارنة بين قوة انجلترا وقوة فرنسا ، وكأن العبيد يفتخرون بقوة سادتهم العظماء •

تقول صحيفة « الزمان » ، احدى صحف الانجليز :

« لكل أمة علامة تعرف بها » ومن بين أهم أوروبا أمة معروفة بهوجها وهذرها ، فالفرنسيون ينقمون على الانجليز احتلالهم للقطر المصرى وينسون انهم هم الذين أهاجوا الانجليز على التدخل فى امور مصر وكبر عليهم أن يروا الانجليز الآن فى مصر وهم محرومون منها ، ولم يكبر عليهم انهم استولوا على تونس غصبا واختلاسا للسلطان ، نعم كبر عليهم دخول الانجليز بلادنا ولكن أى شيء صنعوا وأى عهد نقضوا ، فخدويونا خديونا ومحاكمنا محاكمنا ووژراؤنا وزراؤنا ويدهم الحل والربط ، وأما فى تونس •• فالحال تبدلت ، اذا أبى الفرنسيون ألا خروج الانجليز من مصر فليبدأوا هم بالخروج من تونس » •

وتقول الأهرام :

« ان من ينظر فى أحوال تونس لا يمكن إلا أن يقر بجميل فرنسا على تلك البلاد فى البرهة اليسيرة التى حلت بها ، فلن نمر بضع سنين حتى تصبح تونس من أثرى البلاد الافريقية بعد سن القوانين وأنشاء المجالس والمدارس الفرنسية ••

ولقد ثارت ذات مرة ملاحاة حادة بين الأهرام والمقطم حول قوتى فرنسا وانجلترا ، اذ قالت الأهرام ذات مرة أن فرنسا قوة بحرية مرموقة ، فتصدت لها المقطم متحدثة عن انجلترا سيدة البحار

ودعت الأهرام بصحيفة « أضغاث الأحلام » ، وردت الأهرام بأن
فرنسا لها قوة برية عظيمة ، وهكذا مضت الجريدتان في هذه
المناقشة المؤلمة المريبة .

وكانت فرنسا تعمل على مساعدة بعض العناصر الوطنية .
ولعلها استهدفت ذلك حين سمحت لمحمد عبده والأفغانى باصدار
«العروة الوثقى» في باريس : وحين استضافت يعقوب صنوع رغم اننا
نشك في نوايا هذا الرجل الوطنية ، ويغلب على ظننا أنه كان عميلا
فرنسيا بالمعنى الحرفى للكلمة ، فانعكس ذلك نوعا من حسن الظن
بفرنسا ، واغفالا من بعض المصريين لدورها الاستعماري المقيت في
تونس والجزائر ، ولعل بقية من هذه الثقة الطيبة هي التي وجهت
خطي مصطفى كامل الى فرنسا في بداية كفاحه الوطنى وجعلته في
عام ١٨٩٥ يتقدم بمنشور مصور الى مجلس النواب الفرنسى يرسم
فيه رمزا لفرنسا امرأة قائمة على درجات عالية لبناء عظيم ، يقف
تحت قدميها جموع المصريين يستصرخونها أن تعاونهم على نيل
حريتهم ، وكان تحت هذه الصورة ثلاثة أبيات من شعر مصطفى
كامل وترجمتها بالفرنسية ، والأبيات هي :

أفرنسا يا من رفعت البلايا

عن شعوب تهزها ذكراك

انصرى مصر ، ان مصر بسوء

واحفظى النيل من مهاوى الهلاك

وانشرى فى الورى الحقائق التى

تجلى الخير أمة تهواك

ومما يذكر انه كان مع هذه الصورة خطاب يقول فيه مصطفى

كامل :

« .. ولكن مصر لما اعتراها النصب .. جاءت مستغيثة بفرنسا ،

هذه الدولة العظيمة التي أعلنت حقوق الانسان ، والتي سارت به منذ قرن في سبيل التقدم والمدنية ، وجاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التي حررت أمة من الأمم ، فهل تجاب الى استغاثتها وتضرعها .. فلتحى فرنسا محررة الأمم » ..

هكذا كان الظن بفرنسا ، وقد يكون لمصطفى كامل بعض العذر ، فهو يعلم ان فرنسا هي قائدة الثورة الكبرى التي أعلنت مبادئ الحرية والاخاء والمساواة ، وان الفكر الفرنسى فكر انساني عظيم ، ولكنه لم يكن يعلم - حتى ذلك الوقت - ان للسياسة وجهها غير وجه الفكر ، وأن المصالح تتحكم في المبادئ حتى تمحوها محواً . ولقد أدرك مصطفى كامل بلا شك حين أبرم الاتفاق الودى أن الوصول الى الاستقلال من خلال التناقض بين القوتين الكبيرتين. انجلترا وفرنسا ، لون من الأحلام الرومانتيكية الساذجة ..

كان مصطفى كامل في ذلك الوقت متأثراً بما يسمى « دولية المسألة المصرية » بمعنى أنها ليست نزاعاً بين الانجليز والمصريين ، ولكن القوى الدولية كلها لها رأى في حلها وتوجيهها ، وكان متأثراً بما يقال من قوة الرأى العام العالمى في ذلك الوقت ، ولذلك خافنا نجده يستصرخ فرنسا ، ثم ينشر مقالاته وأحاديثه في صحف النمسا وإيطاليا وألمانيا بل وأمريكا ، ولكنه بعد ذلك كله لا يجد حلاً الا بأن يعود الى مصر ليؤسس فيها حزبا يرجو منه أن يتولى تجميع أبناء البلاد في كتلة وطنية واحدة ..

وقد ظن أعضاء الوفد المصرى فى عام ١٩١٩ انهم يستطيعون بهذا الطابع الدولى للمسألة المصرية أن يستعينوا بالأمريكيين والفرنسيين والاطاليين على الانجليز ، فبدلوا فى ذلك بعض السعى ، ثم ما لبثوا أن فطنوا الى أن المسألة المصرية لا تحل الا فى الأرض المصرية ، وأن الطرفين الوحيدين فيها هما شعب مصر ، والقوة الانجليزية الباغية . وبينهما وحدهما يدور النزاع ..

عود الى الثقافة

أرانا ابتعدنا كثيرا عن بداية الحديث ، ولكن هذا الحديث عن الصراع السياسي بين القوتين الكبيرتين على أرض مصر كان لابد له للحديث عن الصراع الثقافي ، هذا الصراع الذي قاد الى هذا السؤال :

أيهما أجدى لنا .. ثقافة السكسون أو ثقافة اللاتين ؟
وهو أيضا الصراع الذي خرجت منه مصر بشقاقتها الحديثة ،
التي استطاعت ، أو على الأقل طمحت الى التوفيق بين الأصالة
والمعاصرة ، بين التراث والتأثر ..

- ٢ -

تنافس الانجليز والفرنسيون على الاستبداد بالعقل المصرى
كما تنافسوا على الاستبداد بالأرض المصرية . وكان مجال هذا
التنافس هو التعليم ومناهجه ومعاهده . وشهد القرن التاسع
عشر وأوائل القرن العشرين فصولا من هذه الحرب الدائرة بين رجال
هاتين الدولتين فى مجال انشاء المدارس وتلوين مناهجها ،
واستهدفت اللغة العربية فى هذا الصراع الدائر لأثر اللغتين البالغ ،
سواء فى عبارتها أو ألفاظها ، بل تأثرت الحياة المصرية بهذا الجانب
اللغوى من الصراع أثرا ما زال يعيش بيننا الى اليوم . ويكفى فى
مجال اللغة والتعبير أن تقرأ عبارات مثل « وهذا الأمر يشكل خطرا
على » أو « وإذا وضعنا فى الاعتبار » .. أو « وبالإشارة الى » أو
غيرها من العبارات لنذكر تسلسل هذا الاسلوب المترجم ، أما فى
الحياة العامة فيكفى أن يتوقف متوقف فى أحد ميادين القاهرة أو
شوارعها الهامة ليقرأ أسماء المحال التجارية والملاهى وغيرها ، فسيجد
عندئذ عجباً من العجب .. سيجد أسماء فرنسية أو انجليزية لكل

ما يراه ، وكان اللغة العربية ثقيلة الإِظْل على أهلها ، جافية الوقع على ألسنتهم .

والواقع أن اللغة العربية لم تكن في تلك السنوات البعيدة القرية . . في أوائل القرن التاسع عشر ، في حال تستطيع فيها أن تقاوم هذا التيار الوافد . فقد كانت العربية الشائعة لغة ركيكة فقيرة محصورة في بعض الألفاظ والعبارات . ومن البديهي أن اللغة الفقيرة هي سبب للفكر الفقير ونتيجة له في الوقت ذاته . فاللغة الفقيرة لا تستطيع أن تتجاوز الآفاق الكسول المتوارثة إلى آفاق جديدة ، إذ يعوزها اللفظ والتعبير ، كما أن الفكر الفقير لا يحاول أن يبحث عن الفاظ جديدة من مدخور اللغة ومكنوزها لكي يعيد بعثها بالاستعمال ، ويزيل عنها صداها حين تصور على الألسنة والأقلام .

والسجلات الرسمية تحفظ لنا نماذج من كتابات هذا العصر ، كما يمثل الجبرتي أسلوب هذا العصر الأدبي ، حتى إذا مضينا في حكم محمد علي . . فسنجد أن التركية هي لغة الدواوين المعتمدة ، فإذا زاحمتها العربية دخلت مترددة ركيكة ، حتى ليقارن ولاية الأمر بين هذه اللغة التي يقرأونها ، ولغات الأجانب من حيث سلامتها وصحتها واهتمامها بمكملات الأسلوب من الترقيم والتقسيم فيوجه محمد علي خطابا إلى كتاب دواوينه العرب ينصحهم فيه بالتزام الصحة اللغوية والكتابية ، ولكن هذا التوجيه ذاته يكون آية في الركافة والقميح اللغوي ، يقول التوجيه :

« التحقيقات التي يصير استكتابها حسب الإيجاب بقبول الحسابات بيصير ترقيمها بالرقم الهندي وبداعي عدم دقة ورغبة بعض الكتبة وغشومية وعدم اعتنا البعض منهم ، فبكل وقت بيصير وقوع السهو والسقامة منهم بتحرير الأرقام » .

ولن يفوت القارئ لكتابات هذا العصر . . أن يجد الأخطاء

النحوية واللغوية الشائعة حتى في آثار أعلام الكتاب ، ونسيظل كذلك حال اللغة حتى تنهض نهضتنا الباذخة في مجال الشعر حين يحلق بها البارودي ، وفي مجال النثر حين يديرها في أغراض الحياة العامة محمد عبده والأفغاني ومعاصروهما من الكتاب والصحفيين .

أخذت اللغة العربية اذن عن هاتين اللغتين جملة من الأساليب والآلفاظ ، ولا نعني بالآلفاظ هنا ما اصطلاح على تسميته بالآفاظ الضمارة وحدها ، مثل أسماء الآلات والمستجدات العصرية . ومنتجات العلوم ، بل الآفاظ أخرى لها نظائر في لغتنا العربية ، ولكن التيار الوافد أبعدنا عن الأذهان لتحل محلها الآفاظ أوروبية البناء والأصل .

ولكن ذلك كله هو الجانب الهين من الأمر ، أما الجانب الآخر فهو جانب التعليم ذاته ، ومن البديهي أن الاتجاه الفرنسي كان هو الغالب على عصر محمد علي وخلفائه حتى الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وقد استطاع الفرنسيون في هذه الفترة أن يمدوا نفوذهم في مجال التعليم ، وبخاصة وقد كان نابليون قد ألقى البذرة الأولى للأثر الفرنسي في إبان حملته على مصر . وفي عهد محمد علي كان لاميير الفرنسي ناظرا للمهندسخانة وكلوت بك الفرنسي ناظرا للطب ، وكانت البعثات العلمية تسافر الى فرنسا ، ليعود العائدون وفي نفوسهم شيء كبير من التقدير لهذا الوجه الأوروبي الذي عرفوه ، فلا غرو عندئذ أن يترجم رفاة الطهطاوى نشيد المارسييليز الى العربية اعجابا به .

أما في عهد اسماعيل فقد تولى فرنسيون كذلك نظارة معظم المدارس العالية ، كما شهد هذا العهد انشاء سبعين مدرسة من المدارس الأجنبية التابعة للارنساليات التبشيرية ، كاليسوعيين والفرنسيسكان والانجيليين وغيرهم . فضلا عن مدرسة الحقوق الفرنسية المعروفة .

وحين دخل الانجليز مصر كان دأبهم هو اجلاء النفوذ الفرنسي

عن التعليم . وتصدى لذلك «دلوب» الشهير ، ويروى لنا التاريخ كيف انتهم دولوب فرصة تغيب سعد زغلول وزير المعارف في عام ١٩٠٧. وإقال مسيو لامبير ناظر مدرسة الحقوق . وعين بدلا منه انجليزيا ، فآثار ثائرة البلاد والفرنسيين معا .

وتمضى الأمور بمصر ، وينهض جيل من أبنائها يتولى مقاليد التعليم فيها ، ولكن بقية من الأثرين القديمين لا تزال تتغلغل في ثنايا النظام التعليمي المصري . فتظل الانجليزية أو الفرنسية هي اللغة الثانية في التعليم سنوات طولا ، وتظل البعوت العلمية موجهة الى فرنسا أو إنجلترا ، ليعود المبعوثون ، وفي ذهنهم صورة للمدرسة الانجليزية أو المدرسة الفرنسية ، حتى يدخل تيار تربوي جديد هو التياز الأمريكى الذى لا يآلف الثقافة ويفضل عليها الحرفة والعمل اليدوى ، ولا يهتم كثيرا بالانسانيات ، ويؤمن بتطبيق مكان الجامعات إثاراً للمعاهد المهنية ، ويدور صراع بين الاتجاه الانسانى الفرنسى فى التعليم ومثله طه حسين ، والاتجاه التطبيقي المهني ومثله اسماعيل القباني ، وتظل مصر فى غمرة هذا الصراع حتى الآن . ويظل تعليمها مهذا للتجارب وللعدول عن التجارب ، لا تستطيع أن تؤثر أحد الاتجاهين ، ثم تمضى فيه الى غايته .

« فى الثقافة »

وتنعكس آثار هذه الملحمة الواسعة التى دارت فى مجالات السياسة حيناً . وفى مجالات التعليم حيناً آخر ، انعكاسات متباينة الأثر فى الحياة المصرية ، بعض هذه الانعكاسات مثير للجدل ، وبعضها مفيد بناء ، وبعضها ضار مهلك .

يقول سلامة موسى فى كتابه « اليوم والغد » أن وجهتنا الصحيحة الوحيدة هي أوروبا ، ويهاجم التراث العربى بجملته فى كثير من موضع من كتبه . ويذى الدكتور زكى نجيب محمود فى

أحد كتبه المبكرة أن شروق الحضارة الجديدة لا بد أن يكون من الغرب . . . ويقول الدكتور حسين فوزى فى كتابه « سन्दباد عصرى » :

« أفضل بلا تردد حضارة كالحضارة اليونانية ، أو ربيبتها حضارة أوروبا بعد تخلصها من نير القرون الوسطى ، لأنها حضارة وسط بين الروحية والمادية ، ولأنها حضارة تنادى باطلاق العقل البشرى من عقالة ليفكر غير مقيد ، فتشجع الفلسفة ودراسة الطبيعة فى كل أطوارها وأوضاعها . ولأنها حضارة تقوم على الجمال وعبادة الجمال ، ولأنها تسعى الى المساواة الاجتماعية ، وتهىء للفرد فى الجماعة سبيل المعرفة لتمكنه من أن يصبح عنصرا حيا فى بناء العالم ، يساهم فى تقدمه ، وينعم بشمار هذا التقدم ، لا حجرا صليدا يقوم عليه البناء الاجتماعى فى سبيل اسعاد أفراد معدودين يسكنون هذا البناء ، ويتمتعون وحدهم بهوائه فى الصيف ودفئه فى الشتاء » .

هذه الدعوة « الاستغرابية » واضحة الملامح شديدة الجاذبية فى أنحاء حياتنا ، وهى تبدو أحيانا قريبة من الحق ، فما دامت هذه الأمم الغربية قد حققت هذا التقدم الذى مكن لها من السيادة علينا بهذه المناهج فى النظر الى الكون والأشياء ، وبهذا النسق من التفكير والتدمير ، فلا بد لنا من أن نتابعها ، وأن نخرج عن جلودنا القديمة لنكتسب جلودها ، فقد يفتح الله علينا عندئذ فنستطيع أن نجاريهم ، ونثبت لهم فى مجال المحاجة والجدل ، أو فى مجال الفعل والتصرف . وكيف لا نفعل ذلك ، وهم لم يكتسبوا العلم والتكنولوجيا فحسب ، بل أن أدبنا متخلف بالنسبة الى أدبهم ، وفكرنا فقير بالمقارنة الى فكرهم ، وموسيقانا ضجيج أن قيسى الى موسيقاهم ، بل ان حياتنا سطحية مبتذلة بوجه عام ، بينما حياتهم دائبة الحركة ، راسخة الأسطول عميقة الطموح . . .

وقد كان أستاذنا الدكتور طه حسين يقول بشئ من هذا الرأى

فى كتابه « مستقبل الثقافة المصرية » ، اذ بسط فى بعض فصوله نظريته القائلة ان مصر لا تنتمى الى الشرق بمعناه الذى يشمل الهند والصين ، ولكنها تنتمى لحوض البحر المتوسط ، وأن عليها أن تخلع عنها هذا الرداء لترتدى رداءها الجديد ، وغالى طه حسين فطلب أن يدرس طلابنا اللغة اللاتينية فى المدارس الثانوية كما يدرسها طلاب الفرنسية ، ناسيا أن اللاتينية أصل الفرنسية ، بينما لا تكاد تمت الى العربية بسبب .

هذه الدعوات الحارة الى الاستغراب . . . هى لون من السخط على الواقع . حين تستبد الحماسة بهذا السخط ، فتحرفه عن مجاله الصحيح ، فنحن مع هؤلاء المفكرين فى أن فكرنا مكبل بالأغلال والقيود المتوارثة ، وأن أدبنا لا يرقى الى مجال المقارنة بأدب الغرب ، بل ان حياتنا ينقصها هذا التمدد الصحى الذى يشكل توقا الى الأحسن وتجاوزا للواقع الى تخوم جديدة . . . ولكننا أيضا نعرف أن مكاننا جغرافيا هو هذا المكان ، وان وراثتنا البيئية هى هذا الميراث العربى الذى كان زاهرا وافيا باحتياجات عصره يوما ما ، وإن كل ما فكسبه من الاستغراب هو أن ننسى مشية الغراب ولا نستطيع أن نقلد مشية الطاووس .

ان علينا عندئذ أن نرضى بترائنا وبحاضرنا معا ، وأن نحاول أن نوفق بين موقعنا من خارطة الحضارة العالمية ، واندفاع هذه الحضارة وتقدمها ، وقد يكون هذا التوفيق أمرا عسيرا ، ولكن واقع الأمر أن الأجيال العربية الجديدة أستطاعت أن تصل الى هذا التوفيق فى مجالات شتى ، فقد استطاعت أن تصل اليه حين درست فى المدارس المصرية فنون العلم المحدث ، واستطاع بعض أفرادها أن يتفوقوا فى درسه وأن يوائموا بينه وبين نفوسهم الشرقية ، واستطاعت أن تصل اليه حين طمح بعض أفرادها أن يكتبوا فنون المسرح والرواية والقصة وغيرها من الأبنية الفنية المجددة ، فكان لنا منهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهما ، واستطاعت هذه

الأجيال - حين خرجت المرأة المصرية الى الحياة العامة ، فاثبتت وجودها ونهضت بعبه دورها الجديد .

ولكن الصورة قد لا تلبو باهرة حتى الآن ، ويقيني أن العناية على هذه الصورة ليست الا عناية زائلة يوما ما ، وأن السبب الرئيسى فيها هو هذه النسبة الهائلة من الأمية التى نعيشها ، فإن محو الأمية من مصر ليس شعارا أو رقما احصائيا يتيح لنا الفخر فحسب، ولكنه رفع للغطاء عن مخزن بشرى ضخم ، حائل بالمواهب الفنية المتدفقة التى حال صدا الأمية وغطاؤها الكثيف دون انطلاقها .

« انحرافات »

وقد تغلو دعوة التغريب أحيانا حتى تنحرف الى قضيتين غريبتين .

أولاهما : الدعوة الى اللهجات العامية ، استنادا الى قضية اللاتينية وتفرعها الى اللغات المختلفة الفرنسية والإيطالية والاسبانية، وقياسا لحاضر المجتمع العربى على واقع أوروبا فى العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة .

ولهذه الدعوة تاريخ قديم تحمس لها بعض المصريين بحسن نية ، وتحمس لها بعض غير المصريين أيضا ، ولعلنا نلمح بداية لها عند رفاة الطهطاوى اذ يقول فى كتابه « أنوار توفيق الجليل » .

نعم ان اللغة المتداولة فى بلدة من البلاد ، المسماة باللغة الدارجة ، التى يقع بها التفاهم فى المعاملات السائرة لا مانع أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصول على حسب الامكان تربطها ، ليتعارفها أهل الاقليم ، حيث نفعها بالنسبة اليهم عميم وتصنف بها كتب المعارف العمومية والمصالح البلدية .

لقد أشار رفاة الطهطاوى فى هذا الحديث الى تبنى العامية ،

ولكنه لم يصرح ، وربما كان دافعه الى ذلك سوء حال اللغة العربية عندئذ مع ما علمه في أثناء اقامته في فرنسا من خروج الفرنسية الحديثة من اللاتينية القديمة ، وما رآه من ولع كل من رآه بالثقافة والعلم واقبالهم - بما فيهم خدم المقاهي - على قراءة الصحف والمجلات فظن ان الكتابة بالعامية قد تنشر الوعي بين الناس ، ناسيا أن خطوة هامة ينبغي أن تسبق كل قراءة سواء أكانت بالعامية أم الفصحى ، وهي تعلم القراءة ذاتها . . .

وتدور الأمور بهذه الدعوة . ويتحمس لها بعض المستشرقين ممن لا نستطيع أن نحكم على نواياهم ، ويؤلفون قواميس اللهجة العامية ، ويغلو في الترويج لها «ويلكوكس» مهندس الثرى الانجليزى الذى كان قيما على ماء نيل مصر فى أولى سنوات الاحتلال ، وتسقط فى يده مجلة اسمها «الأزهر» فيكتب فيها داعيا الى العامية ، قائلا : ان اللغة العربية الفصحى هى التى عاقت المصريين عن الاختراع . . . !

ولكن لم يحدثنا هؤلاء المتحمسون . . . أى عامية يريدون . . . أهى عامية شمال مصر أم جنوبها ، وكيف نفعل بترائنا العربى . . . هل نترجمه الى العامية . وما هى قواعدها وبلاغتها . . .

ان واقع الأمر ان حسن النية من هؤلاء الداعين للعامية . . . لم يفتنوا الى لب المشكلة كما قلنا ، وهو الأمية المتفشية فى مصر ، كما انهم لم يفتنوا الى أن العربية الفصحى ذاتها تتطور تطورا مجسوسا ، بحيث أصبحت تصلح وسيلة للافهام ونقل المعارف الحديثة . وان الجهد الذى قد يبذل فى وضع قواعد للعامية كاف اذا وجه وجهته الصحيحة أن يجعل من العربية لغة عامة بين الناس .

وشبيه بهذا الكلام الحديث عن كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، وهى دعوة تبناها عبد العزيز فهمى فى أخريات أيامه ، ناسيا ان لكل لغة صعوباتها الناتجة عن اختلاف كتابة بعض الكلمات

عند نطقها ، ونستطيع أن نسرد في الانجليزية عشرات الكلمات ،
ويكفى شاهدا كلمة مثل « نايت » بمعنى ليل أو بمعنى فارس ،
وكل الكلمات الأخرى ذات الأصل الجرمانى لا اللاتينى .

« التوفيق »

ورغم ذلك كله . . فاننا حين نرى صفحة الحياة النقاوية المصرية ،
بفكرها الفلسفى ، وبأدبها ومسرحها وفننها ، وننظر الى الجوانب
الايجابية فى هذا كله ، نستطيع أن نقول ان المعجزة المصرية قد
استطاعت أن توفق بين وراثاتها وحاضرها ، وأن تمزج بين تراثها
وتأثيرها . . وان ما يلزم لها أشد اللزوم هو مزيد من الخطوات
الدائبة على الطريق الصحيح .

ان مسرحية جيدة بالعربية تتناول مشكلات الواقع المصرى ،
أو قصيدة بالعربية تمس قلب القارئ فى كل مكان ، أو قطعة
موسيقية يبدعها مصرى ، فتطوف الأرجاء ، أو عقلا مصرى يسامت
بفكره فكر العالم . . كل تلك ردود عملية على السؤال :

كيف استطاعت مصر أن توفق بين الأصالة والمعاصرة ؟ بين
الماضى ، وتأثيرات الحضارة الغربية ؟

وهى أيضا ردود عملية على كل من أرادوا السيطرة على العقل
المصرى ، فأخذ العقل المصرى عنهم ومنهم ، ثم انطلق فى سبيله .

لقد شب العقل المصرى عن الطوق ، ولم يعد فى غرارة تلك
الطفولة التى يتقبل فيها مستخدبا واهنا ، والأجيال الجديدة أن
تتوقف لتتساءل : أهى غربية أم شرقية ، ولكنها ستعرف بالفترة
المسلمة انها وحسب . . مصرية معاصرة .

كتابات صلاح عبد الصبور

شعر

- الناس في بلادى
دار العودة - بيروت - الطبعة الخامسة ١٩٧٠
- أقول لكم
دار العودة - بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٧٠
- أحلام الفارس القديم
دار العودة - بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٧٠
- تأملات في زمن جريح
دار العودة - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٧١
- شجر الليل
دار العالم العربي - بيروت - الطبعة الاولى ١٩٧٢

مسرح شعري

- مأساة الحلاج
دار العودة - بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٧١
- مسافر ليل
في مجلد واحد - الطبعة الثانية دار النهضة

- الأميرة تنتظر
١٩٧٢ دار النهضة العربية - القاهرة
- ليلي والمجنون
١٩٧٠ دار العودة - الطبعة الثانية
- تند ودراسات
- أصوات العصر
١٩٦٣ الدار القومية بالقاهرة - الطبعة الثانية
- ماذا يبقى منهم للتاريخ
١٩٦٦ دار الكاتب العربي بالقاهرة - الطبعة الثانية
- حتى نقهر الموت
١٩٦٦ دار الطليعة ببيروت - الطبعة الأولى
- قراءة جديدة لشعرنا القديم
١٩٦٨ دار الكاتب العربي بالقاهرة - الطبعة الأولى
- حياتي في الشعر
١٩٦٩ دار الطليعة ببيروت - الطبعة الأولى
- على محمود طه
١٩٦٩ دار الآداب - بيروت - الطبعة الأولى
- وتبقى الكلمة
١٩٧٠ دار الآداب - بيروت - الطبعة الأولى
- رحلة على الورق
١٩٧١ مكتبة الانجلو - القاهرة - الطبعة الأولى



صدر حتى الآن :

- ١ - لغتنا الجميلة : فاروق شموشة
- ٢ - ممنوع من التداول : محمود عوض
- ٣ - قصة الضمير المصرى الحديث : صلاح عبد الصبور

الكتاب القادم :

التليفزيون •• وحضارة الصورة

بقلم : عبد المنعم حسن

● المراسلات :

التحرير : ٢٦ شارع منصور بالقاهرة

تليفون ٢٢٧٢١ - ٣٢٥٠٢

الادارة : ١٣ شارع محمد عز العرب

(المتديان سابقا) - ص . ب ١٣٢٨

تليفون ٢٤١٤٥

الاعلانات : يتفق عليها مع ادارة المجلة

تليفون ٢٤١٤٥

هــذا الكتاب

قصة الفهمر المصرى الحديث .. هي قصة
الوعي الوطنى ، والادراك لحركة التاريخ ، والبعد
بالمستقبل .. وهي ايضا قصة تيارات الثقافة العصرية
الوافدة .. وهي اخيرا قصة الرجال الاذكياء الذين
ساهموا فى صناعة العقل المصرى الحديث ، امثال
رفاعة الطهطاوى ، وجمال الدين الافغانى ، وعبد الله
النديم ، ومحمد عبده ، ولطفى السيد ، وطه حسين
وغيرهم .

هذه القصة يجلوها لنا بقلمه الرشيق ورؤيته
الجديدة ، الشاعر الكاتب : صلاح عبد الصبور .
انها قصة ممتعة .. وتفاصيلها اكثر امتاعا ..

Bibliotheca Alexandrina



0399825

الشم